حوارات في تدبير المبتدئين

(ملف مُجمَع)

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٧

www.coptology.org

تمهيد

هذه السطور والصفحات نُقلت من أحاديث مع شيوخ الرهبنة. جُمعت في الفترة ما بين ١٩٥٩–١٩٦٤ وفي بعض الفترات المتأخرة أيضـــاً، وقد تركتُ الأسماء عن عمدٍ؛ لأن الأسماء ليس لها أهمية، والأهم من كل الأسماء هو التعليم. قد ترى فيها ملامح أبونا مينا المتوحد، أو أبونا فليمون المقاري، أو أبونا متى المسكين، ويقين القارئ هو المرجع.

لا يوجد ترتيب للموضـــوعات المطروحة؛ لأن كل حوار كان يتم بشـــكل عفوي غير مرتَّب، وكان التدوين يتم في نفس اليوم، أي أنه تم نقل التعليم كما سمعته. وفي تعليم الشـــيوخ (بســـتان أو فردوس الآباء) تجد العبارات التالية: قال شـــيخ، أو قال الأنبا أنطونيوس، أو الأنبا بيمن، أو يوحنا القصـــير. هذه الأقوال نُقلت من الذين سمعوها وعاشوها ثم دُوِّنَت. ولكن هنا يتم التدوين بعد السماع بساعات، وكان التدقيق ضرورياً. صـحة التعليم أهم من كل الأسماء ومرجعية التعليم هي الأسـفار والتسـليم الكنسـي في كتب الصلوات الأرثوذكسية.

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢١ نوفمبر ٢٠١٦ م — ١٢ هاتور ١٧٣٣ ش

عيد رئيس الملائكة الجليل ميخائيل

(١)

الحياة الأرثوذكسية

كيف أحيا الحياة المسيحية الأرثوذكسية؟

+ الجواب: عليك أن تكون على حذر من أن تسعى وراء كَمٍّ من المعلومات، أو تظن أنك بالتوسع في القراءة تكون قد وصلت إلى معرفة الحق. كن على حذر من أن تسقط في فخ الكم؛ لأن الكم فيه إغراء شديد يمس حب الفضول، ويمس أيضاً شيئاً دقيقاً جداً في النفس، وهو الخلاص بواسطة المعرفة.

حتى الصلاة لا يجب أن تكون حسب الكم.

يعني تقول لنفسك النهاردة أنا صليت ساعة، أو صليت ١٠ مزامير، المحبة الحقيقية لا تعرف الكم، ولا تزن أي شيء بميزان الكم. ولذلك قال ربنا يسوع المسيح إن كأس ماء بارد هو عطية محبة، واعتبر أن مجرد زيارة مريض هو عمل محبة. حاسب على نفسك من الكم ودوَّر (ابحث) عن النوع. ما هو نوع محبتك للرب؟ يعني فيه (هناك) شخص بيحب الرب يسوع محب البشر كسيدٍ غضوب قاسٍ، ولا يرضى هذا الشخص بنعمة التبني بل يصلي كعبد إلى أن ينوِّر ربنا يسوع قلبه وفكره، ويحس (يشعر) قلبه بمحبة الرب يسوع، ويتعلم من المحبة إزاي (كيف) يصلي كابن. علشان كده عاوزك دايماً تفكر في أول خطوة في التدبير، وهي محبة البشر. هو اللي (الذي) جاء إلينا، وهو اللي طلبنا، وهو الراعي الصالح الذي يقود الخراف، والثقة في محبة الرب محب الخطاة، أي محب البشر.

أنا على قد (حسب) فِهمي عارف إن محب البشر تعني محب الخطاة؛ لأن لا يوجد واحد قدوس وكامل إلَّا ربنا يسوع.

اوعى تقول إزاي (كيف) أوصل لمحبة الرب؛ لأنك لو بديت بهذا السؤال هتوه وتفقد الاتجاه الصح، المحبة لا تحتاج إلى بحث، هي بذرة كامنة في كل قلب تلقاها في محبة الأكل ومحبة اللبس ومحبة المديح ومحبة المعرفة، وليها أشكال وأنواع، لكن تنوُّع هذه الأشكال لا يجعل للمحبة أنواعاً كثيرة. هي زي نار، وكل رغبة في قلب أي واحد منا تأخذ شرارة علشان تغذي شهوة أو فكرة أو عمل. الكلام ده صعب عليك؟

قلت: لا، بل سهل وواضح، ولذلك ابتسم في وداعة.

فقال لي: الإنسان خُلق لكي يُحب، ولما المحبة بتضل الطريق وتروح وراء أشياء غير نافعة تتسجس (تتلوث) المحبة وتبعتر (تبعثر) قوتها وتروح في كل اتجاه، فتفقد قوتها زي مية، بدل ما تجري في مجرى واحد، انقسمت وراحت في أكثر من مجرى وضاعت ومحدش قادر يلاحظها. لاحظ أن هذه القوة الخفية اللي فيك هي حسب الطبيعة، ولذلك قال الرب: "أحب قريبك كنفسك" يعني محبة القريب تبدأ من محبة الإنسان لنفسه، وتفضل حية طالما الإنسان بيحب نفسه.

واحنا قاعدين هنا في القلاية، لو أنا معنديش محبة، مكونتش قبلتك، ولو أنت بلا محبة مش هتيجي هنا عندي. لكن يا أخ، المحبة الإنسانية دي هي الأساس اللي عليه بيشتغل الروح القدس، واللي فداه الرب يسوع من سلطان الموت، وحرره من الدينونة وسطوة الخطية.

كل عمل للروح القدس له أساس في طبع الإنسان، ولو مافيش أساس يضع الروح القدس هذا الأساس.

سألته أن يشرح هذه النقطة بالذات، فنظر إليَّ ثم أحنى رأسه أمام الرب كعادته

وقال:

الإنسان عنده ذكاء، ولكن الذكاء موش ضروري يكون فيه إفراز، ولذلك يضع الروح القدس نعمة الإفراز. الانسان عنده شجاعة، وتلاقيها واضحة جداً في دفاع الإنسان عن نفسه، ولكن معندوش شجاعة أمام الموت، ولذلك يضع الرب يسوع قوة الصلب والقيامة، ويثبِّت الروح القدس هذه القوة لكي يقبل الإنسان الموت، وهكذا قَبِلَ الشهداء العذاب والموت من أجل الرب. الإنسان يحب الأفضل والأعظم والباقي والدائم، وهي (ملامح وصفات) بحث الإنسان عن الأبدي، ولذلك ينير الروح القدس قلب الإنسان لكي يرى أن الباقي والأبدي هو سُكنى الثالوث فينا "إليه نأتي وعنده نصنع منزلاً". لابد أن نبدأ بما هو موجود فينا لكي ينمو، وهو لن ينمو إلا بالمحبة.

سألته: لماذا المحبة؟

فقال: المحبة هي قوة طبيعية في النفس، ومن النفس ينال الجسد نفسه ذات القوة. هي التصاق وطلب، بل واتحاد. تأمَّل قول الرب نفسه: "يترك الرجل أباه وأمه"، أي الأسرة حيث ولد وعاش، ثم: "ويلتصق بامرأته ويصير الأثنان جسداً واحداً". وقد أضاف رب المجد شرحاً وافياً وموجزاً: "وما جمَّعه الله لا يفرقه إنسان"؛ لكي يمنع اقتحام أي غريب لهذه العلاقة التي صُهرت في أتون نار المحبة. لكن يا أخي المحبوب، المحبة التي تجمع الكل هي محبة الإنسان لنفسه التي يفتديها الرب يسوع، ويفتح عملها على الآخر. ولذلك، عندما يتقدس الإنسان بالروح القدس، تتحول قوة المحبة إلى قوة لا يقف أمامها أي شيء، ولذلك قال سليمان: "المحبة قوية مثل الموت"، ولكن في بركة العهد الجديد، صارت أقوى من الموت، لأنها دفعة القيامة، هي محبة غير قابلة للانحلال، أقصد الموت، هي محبة نالت قوة الرب يسوع نفسه، ولذلك هي محبة مثلثة: الذات مركزها، ولكنها تطلب الآخر، وتبقى في المسيح، أي الذات والآخر والمسيح رب المجد.

سألته: إذن البداية هي المحبة، وماذا عن صلوات السواعي والتسبحة والقداسات؟

قال: هذه هي قصر الملك، لا يدخلها إلا الأحرار، وفيها عرش الثالوث وإشعاع نور الحياة من الابن ربنا يسوع المسيح، وبمعونة ونعمة الروح القدس.

لعل أعظم أخطاء التدبير في جيلنا هذا، هو أن هذه القصور الملكية تحولت إلى عِشش شحاتين (شحاذين) لأنها فُرضت بالقوة، وصارت فرضاً وقانوناً، فتحولت من مجد الملك إلى عِشة صفيح؛ لأن الذي يدخلها لا يرى فيها إلا الفقر، بينما هي ذهب وأحجار ثمينة. لم نعلِّم الناس كيف تحتوي هذه القصور الملكية على جمال وقوة ومحبة الثالوث.

سألته: أريد شرحاً مستوفياً من أجل نفسي.

قال: معك كل الحق. صلاة المزامير هي متنوعة من طلب الرحمة إلى الصراخ والدموع إلى طلب معونة الرب. وكان يجب أن نعلِّم الشعب كيف يختار المزامير حسب احتياجات الحياة. أنا أحب مزمور ٥٠ "ارحمني يا الله"؛ لأنه طلب رحمة واغتسال من نجاسة الخطية، وهو الاغتسال الذي يفعله روح الحق فينا لكي يطهرنا نحن أبناء الله. ولكن إذا تحول هذا إلى فرض، وأصبح من الواجب تلاوة المزمور ٥٠ لمجرد التلاوة، خرج الإنسان من قصر الملك وتحول إلى عبدٍ متسول.

سألته: هل يعني هذا أن لا نتلو المزامير حسب ترتيب الكنيسة؟

قال: أنا لم أقصد هذا؛ لأنك تتحدث عن المنع التام، بينما أنا أتحدث عن الاختيار حسب الحاجة، والفرق كبير بين مَن لا يريد وبين مَن يختار؛ لأن الثاني لا زال في الكنيسة، أما الأول فقد خرج بره الكنيسة.

سألته: في بداية حياتي، منعني أبي الروحي من صلاة الأجبية، وطلب مني أن أصلي إبصاليات لاسم الرب يسوع كل يوم؛ لكي اتَّحد وألتصق بالرب.

قال: هو بلا شك إنسانٌ حكيم، ولابد أنك عُدت بعد ذلك إلى المزامير.

قلت له: نعم، لقد عُدت؛ لأنه قال لي: المزامير مثل مرآة للنفس، تكشف عن عيوب كامنة في النفس، وهي مثل سكين الطبيب يفتح بها خُرَّاجاً عفناً كامناً في القلب مثل خُرَّاج الخوف والتردد. الإبصاليات أهم من المزامير بالنسبة لكل مبتدئ؛ لأنها تزرع في القلب حضور ومشاركة الرب يسوع لحياتنا في كل الأمور، وعلى مدار الأسبوع.

اتحادنا بالرب يسوع هو بداية التدبير الصحيح، وهو الطريق؛ لأنك لابُد أن تكون قد تذكرت أن الطريق هو الاسم القديم المهجور للرب نفسه. هذا ليس فرضاً، بل هو تدفق المحبة من قلب مَن يحب الرب يسوع. ولكن هناك في هذا الطريق صعوبات لا نراها، وعندما أكَّد الآباء الكبار على ضرورة "التغصُّب"، فقد كانوا يقصدون أمرين:

الأول: الانسلاخ التام عن معطلات الاتحاد؛ لأنها غير نافعة، وقد اخترت كلمة الانسلاخ عن قصد؛ لأن السلخ مُتعب وموجع.

ثانياً: طلب الرب الدائم، ولذلك، الإبصاليات ضرورة، ليس كفرض، بل هي مثل شرب الماء وتنفُّس الهواء.

سألته: كيف يهرب الإنسان، أو كيف نقاوم الاقتناع بالفرض؟

قال: الفرض هو حكم الشريعة الموسوية، وهذا ليس له مكان في شركتنا مع وبالثالوث القدوس. الفرض يا أخي هو أنك ترى نفسك مذنباً إذا لم تفعله، ولكن الاتحاد بالمسيح له ثلاثة أهداف:

أولاً: أن تفهم ذاتك في شركتك مع الرب نفسه؛ لأن أي تفهُّمٍ للذات بدون المسيح، قد يطوِّح بك خارج الشركة.

ثانياً: أن يكون لديك الاقتناع التام بأن يسوع المسيح هو رب ومخلص الخطاة، وأنه هو يطلبك قبل أن تطلبه أنت، وهو الذي وضع فيك هذا الشعور الغامض بأن تطلبه.

ثالثاً: إن مصيرك ومصير الرب يسوع واحد، أي الملك والبنوة والحياة الأبدية. هذا اختيار أبدي.

سألته: عملياً، كيف أبدأ وأنت قد وضعت المحبة كبداية؟

قال: البداية هي أنت، هي فيك، أي في قلبك. إنها ليست نظرية، ولا قانون. أنت البداية، ولذلك، كل ما لديك من قوى ومواهب هي الأساس. المحبة قوة داخلية عقلية، وليست شعورية فقط. هي أيضاً قوة الإرادة، وهي اختيار المصير الأبدي، وهو ذات مصير يسوع: المجد الأبدي ووراثة الملكوت.

لا تبدأ بالخطية؛ لأن هذه البداية سيئة، وقد جعلت كثيرين لا يتقدمون، وظلُّوا على أعتاب الذنب إلى ان يشرق الرب عليهم بنور الحياة الجديدة.

: ولكن بداية كرازة الرب في إنجيل مرقس هي: "توبوا وآمنوا بالإنجيل".

قال: نعم هذا حق، ولكن التوبة بالمعنى المسيحي لا بالمعنى الدارج غير المسيحي، وهو التحول وتغيير الفكر وقبول الخبر السار، أي الإنجيل وهو مجيء الملكوت.

يا أخي علينا أن نبدأ ما هو صالح بما هو صالح، لا أن نبدأ بما هو شرير أو فاسد لكي نصل إلى ما هو صالح ومقدس، أي أن نبدأ ليس بجراح الإنسان، بل بحركة الإنسان وقدرته على السير أو تناول الطعام. أما إذا بدأ الإنسان بعدم القدرة، يظل عاجزاً كل حياته. يعني إذا كانت يدك مجروحة، فإن وضع الأدوية ضروري، ولكن عدم الحركة يجعل اليد يابسة، وأنا أقصد إذا كان في القلب خطايا، فإن تحول الفكر، أي التوبة هو بحثٌ عن الحياة لا الوقوف عند وجع الجراح مهما كانت. طبعاً سوف تعود الجراح، ولكن لا يجب أن ننسى أن يسوع هو الشافي، ونحن نقول في الأوشية: "لأنك أنت هو طبيب أنفسنا وأرواحنا". النفس الجريحة عليها أن تتحرك بما هو صحيح، لا أن تجلس على أنهار بابل وتذكر تسابيح صهيون، وتمتنع عن التسبيح في "أرض غريبة".

قلت: اذن لماذا نصلي هذا المزمور في الأجبية؟

قال: نحن لا نجلس على أنهار بابل إلا إذا كنا بعيدين عن الرب، ولكن المزمور يذكِّر بالغربة، والغربة هي هنا في هذه الدنيا التي ملأها الإنسان بالكثير مما هو غريب عن الله. اذهب إلى أي مكتبة ترى مئات الكتب، هل استطاعت هذه الكتب أن تمنع القتل والزنى والسرقة والكذب؟ أبداً، ولكن نحن "الغرباء في هذا المكان احفظنا في إيمانك وانعم لنا بسلامك إلى النهاية". إن المزمور يذكِّرنا بما نحن فيه بالمقارنة بالشعب القديم، وهي دعوة لكي نَفوق (نستيقظ). أعود فأقول ابدأ بما تحب وغربل (استخدام الغربال) ما تحب، ثم اختر ما يتوافق مع الرب، وعليك ان ترى، أي أن تفرز ما إذا كان اختيارك هو للرب أم لذاتك فقط. إن ما تحب يا أخي هو البداية، وما تحب لا يجب أن يكون الرب يسوع واحد من الذي أو الذين تحبهم هو الرب والسيد، والايمان الصحيح بأن يسوع رب، هو الايمان بأن تضع كل شيء تحت سلطانه. عندما نضع ما نحب تحت سلطان الرب، فإننا في الطريق، أي طريق الاتحاد، نكتشف ما هو ضروري وما هو غير ضروري، وبذلك نكون قد عبرنا من بوابة الفروض والشريعة والتقوى المزيفة إلى حرية أولاد الله.

(٢)

التعلُّم من المحبة

سؤال: إذا بدأ أيٌّ منا بالمحبة، فكيف تصبح المحبة منهجاً للنمو؟

الجواب: المحبة ليست عواطف ومشاعر فقط، بل إرادة وقرار وعزم والتصاق، وهي تبدأ بحمل الصليب، ولكن يسبق حمل الصليب، جحدُ الذات، وجحدُ الذات، أو إنكار الذات ليس كراهية الإنسان لذاته، بل هو تحديداً:

أولاً: لا تصبح ذاتك هي مصدر حياتك؛ لأن كل متاعبنا تأتي من الوعي بأن الذات، أي ذاتي ووجودي هما سبب حياتي. والصحيح هو أن الذات يجب أن تُحب وأن يقبلها الإنسان كعطية من الله. مَن رأى ذاته، أي وجوده عطيةً وحياته هبةً من الله لا يسيطر عليه الغضب ولا تسود عليه الكبرياء.

ثانياً: عندما نقرر أن نحمل الصليب، فإننا نسير مع الرب، أي يصبح هو الطريق -كما سبق وذكرت- أي نعيش بالتعليم الرباني بحفظ وصاياه؛ لأن الوصايا ليست فرضاً علينا، بل هي مثل الخريطة أو البوصلة تحدد لك الاتجاه.

قاطعته، وطلبت شرحاً أكثر.

فقال: يعني حِب قريبك كنفسك، وهي الوصية الثانية. عندما نفشل في حفظ هذه الوصية أو نتعثر، فإننا في النهاية نجد أن الفشل يكشف لنا عن خبايا وأسرار في قلوبنا ترسبت فينا دون أن ندري، أو أحببناها عن قصد وعزم.

ثالثاً: وجحد الذات هو تقديم الذات ذبيحة؛ لذلك قال الرب: "يحمل صليبه"، وهو تقديم دائم، يعني كل يوم. ده أي إنسان عاوز يبقى "تلميذ" للرب يسوع نفسه يعيش بنفس حياة الرب.

سؤال: ماذا تعني بالضبط؟

قال: أقصد أن الرب يسوع وضع حياته كلها في يد الآب، ووحَّد إرادته بالآب: "أنا والآب واحد" بالجوهر وبالإرادة. ولكن بالنسبة لنا نحن تلاميذ الرب المؤمنين به، نحن واحد معه حسب المحبة التي لا تنقسم. يا أخي، فيه كلام بطَّال، بل ومُدمر، وهو فصل أقانيم الثالوث، موش بس الروح القدس عن المواهب، كما لو كان فيه حاجة اسمها المواهب هي زائدة أو خارجة لا تنتمي إلى الروح القدس، ولكن الله ليس مستويات من المحبة. المحبة علاقة شخصية، ومحبة الثالوث لنا هي محبة واحدة، يعني محبة الآب للابن هي ذات محبة الابن لنا، ولا تنزعج بالمرة؛ لأن المحبة شركة، والشركة دي موش زي الكهرباء، تدوس على الكُبس، النور ينور، أبداً، دي شركة شخصية ينال فيها كل إنسان على قدر نموه؛ لأن الثالوث مش حنفية ميه تتفتح، وكل اللي عاوز ياخذ. لأ دي شركة، وكل واحد على قد رغبته وعزمه في التنازل عن الذات.

سؤال: عاوز أرجع لأول الحوار، كيف تنظم محبتي للرب يسوع، حياتي؟

فقال: إذا كنت بتدوَّر على قانون، لازم يكون واضح عندك إن المحبة لا تعرف القوانين. إقرأ (١كو ١٣: ١-١١) وحاول تطلَّع لي قانون. يعني مثلاً: "المحبة لا تطلب ما لنفسها"، حُطَّها كده في قانون، تبقى مش محبة، بقت سلسلة، ولما نفقد الحرية، نفقد المحبة. لا محبة بلا حرية، لأن المحبة بذل، فإذا دخل الإرغام والقهر عليها، لم تصبح محبة. عاوز أقول إن ما ذكره رسول الرب في (١كو ١٣: ١-١١) عن المحبة هو أيقونة لفظية عن الرب يسوع نفسه، يعني أيقونة مرسومة بالكلام. أرجع أقول لك أربعة أركان التدبير الخاص بالمحبة:

الأول: المحبة اختيار حر.

الثاني: المحبة ليس لها شروط ولا أسباب.

الثالث: المحبة عطاء بلا قيود، وهو عطاء حر.

الرابع: المحبة شركة كاملة لا تعرف فواصل أو موانع.

يا أخي المحبة اختيار حر بلا ارغام.

سؤال: وماذا تقول عن التغصُّب؟

الجواب: سؤال جيد لأن التغصُّب هو اختبار المحبة لِمَا هو أفضل، وهو يُسمى تغصُّب لأن أحياناً نرى الأفضل، ولكن الضعف الذي فينا يريد أن يحولنا عن الأفضل. ولذلك، يُلزم الإنسان نفسه بما هو ضد مشاعره، يعني مثلاً: "أحبوا أعدائكم"، بالطبع لدينا عواطف تحاول أن تجعلنا ننتقم أو ننال "حقنا"، ولكن يجب أن نلاحظ أن من يعارض عدوه بكراهية لا يختلف عن العدو، يعني ذات العداوة اللي في قلب العدو هي ذات العداوة اللي في قلبي، يعني أنا مش أحسن منه.

زمان سمعت من الشيوخ حكمة ولم أفهمها إلا بعد سنوات: "حِب عدوك علشان تعرف تقاومه بالمحبة" وعبرت الحكمة، وجاءت سنوات كنت فيها مُطَارد ومحروم، وبدأت أكشف أسرار قلبي للرب يسوع، يعني لو أنا هَكره إللي جردوني من الكهنوت مهما كانت الأسباب، هبقى زيُّهم، ولكن أقاوم العداوة إزاي؟ حبست نفسي، وطلبت إرشاد الرب نفسه، وتذكَّرت الحكمة اللي سمعتها، وكانت النتيجة هي أنني بدأت أكتب عن الإيمان، وعن شخص الرب يسوع، وعن الموت والقيامة، وبدأت أتمنى أن يذوق الذين يطاردونني ما أذوقه أنا من حلاوة هذه المحبة التي أشرقت في قلبي، وأنا موش باتكلم عن الكتب والمطبوعات، أبداً دي كلها جاءت مثل مخاض المحبة. دخل سيف العداوة في قلبي علشان يكشف لي خبايا قلبي، ولم أجد لي خلاصاً إلا ربنا يسوع المسيح، وخدمة الأخوة

كانت تعزية ولا تزال، ولكن التعزية الأبدية هو إنه انكشـــف لي عمق هاوية الكراهية، وبدأت المقاومة الايجابية بالكشف عن شخص الرب يسوع.

أنا موش عاوز أســـيِّبك الأركان الأربعة؛ لأن المجتمع لا يعرف أن المحبة ليس لها شـروط ولا حتى أسـباب. الله يحبنا محبة بلا أسـباب؛ لأن الله محبة. طيب، والانسـان هو موش ممكن يكون محبة زي الله؟ حقاً، الإنسـان مضـروب بالموت، والموت هو اللي بيضـع الشروط والأسباب.

سؤال: شروط زي إيه؟

الجواب: يعني في عبارة الرب يسـوع المسـيح نفسـه: "إن احببتم الذين يحبونكم، فأي أجر أو ما هو الهدف الأعظم أو الغاية التي تريدونها، أليس العشـــارين والزناة يحبون من يحبهم". المحبة التي لها شـروط هي محبة وضـعها الموت فينا، وصـارت محبة مشـروطة بما يراه الإنســان فائدة لنفسـه. وشـروط المحبة تلاقيها عندك في محاضـرات اللاهوت النظري عندكم.

الله لم يرســل الابن بشــروط، بل جاء وأكمل التدبير وصــار يدعونا إليه. التوبة تأتي بعد الإيمان والقبول، وهي جزء من الإيمان، وهي ليسـت شـرطاً، هي تحول الإنسـان إلى طريق الحياة. طيب، هتقول إزاي ده ينظَّم حياتي؟ أقول لك: كما أن للمحبة أربعة أركان، فالتدبير الخاص بالمحبة له أيضاً أربعة أركان:

الأول: كل شيء شراكة في المسيح ومع المسيح وبالمسيح.

ثانياً: رفض كل العادات والمثل التي تســـود المجتمع، وطلب المثال الواضـــح والحقيقي، وهو يسوع نفسه.

ثالثاً: كل تفكير في احتياجات الإنسـان لازم يكون من باب المحبة. دي "لزومية المحبة" موش قانون، لازم تعرضـــها على الرب حتى لو كنت هتشـــرب كوباية ميَّه، موش

لأنك مستني تصريح أو استعلان، أبدأ، ولكن لأنك بتطلب إنك موش هتكون وحدك، وحتى لو نسيت، بحكم العادة، فَدَه موش خطية ولا شر، هو تربية الوعي المحصن في محبة الذات.

كنت أعرف واحد من الشيوخ، حتى لو راح دورة الميه، كان يقول يا يسوع عن إذنك، أنا داخل الحمام، ومرة سمعه واحد من الأخوة، وظن إنه اتجنن، فقال له الشيخ وقد عرف فكره: لو تعرف محبة يسوع ليك متقدرش تعمل شيء من غيره.

رابعاً: التخلي التام عن كل ما تظن إنه لك من ملابس وكتب وأموال؛ لأنها ليست ملكاً لك وحدك، بل هي ملك لك وليسوع، الشريك في حياتك والواهب لك الحياة الأبدية.

وبعدين كل مرة هتلاقي صعوبة، أوعى تفكَّر إن المسيح سابك أو تخلَّى عنَّك، أبداً، هو معاك وفيك دائماً. هذا ليس شعور، ولا هو عاطفة في القلب، هو اقتناع وعزم من الإرادة بانك لست وحدك، ولا إن حياتك مِلك لك. هذا يأخذ زماناً، وعندما ننضج، يمنحنا الرب الحضور والحول الدائم فينا.

سؤال: لم تذكر لي شيئاً عن الصلاة.

فقال: ولماذا أذكر موضوع الصلاة برمته. مَن يحب، لا يحتاج إلى أن يذكر له أحد أو يتذكر مَن يحب. هو يحيا في حياة شركة، قال عنها الرسول القديس بولس: "شركاء المسيح" (عب ٢: ١٤)، ثم بعد ذلك "شركاء الروح القدس" (عب ٦: ٤)، وهي شركتنا في الابن. يا أخي، لنا وجود أبدي في المسيح. أولاً: لأنه أخذ الطبيعة الإنسانية، فصار بكراً بين أخوة كثيرين. وثانياً: لأنه هو الذي يدعونا إلى أن نشاركه حياته. التجسد ليس من أجل الآب أو الابن أو الروح القدس، بل كما يذكر قانون الإيمان: "هذا الذي لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد ..."، لذلك علينا أن نرى هذا الاتحاد بشكل صحيح وسليم.

الصـــلاة هي رؤية هذا الاتحاد، وهي ســـعي دائم لكي يتحقق فينا في الواقع الإنســـاني الذي نعيشـــه. هذا الاتحاد هو نمو، ولكن يبدأ بأننا "واحد مع الرب" بالروح وبالجســـد أيضـــاً، ولذلك، عندما ننمو نحو هذا الهدف الأبدي، فنحن لا ننمو طالبين هدفاً خارجياً زائداً، بل ننمو داخلنا نحو الرأس، أي يســوع المســيح؛ لأن الرســول يقول "إننا قد مُتنا وحياتنا مســـتترة، أي داخلية غير منظورة ولا تقاس بما هو منظور، حياتنا مستترة مع المسيح في الله" (كولوسي ٣: ٢).

سؤال: إذن كيف أُصلِّي؟

فقال: الصلاة هي عودة الذي يُصلِّي إلى الأساس، إلى يسوع الذي فينا. وهنا، تلاوة المزامير أو الصلوات، هي كشفٌ عمَّا في الحياة، هي ليست مقيَّدة بالنصّ، بل تبدأ بالنص. أعرف أخاً كان في القداس، وسَمِعَ الكاهن يقول: "اهدنا إلى ملكوتك"، فوجد نفسه في ملكوت الله، ورأى القوات السمائية حول الابن الوحيد وامتلأ بالفرح. الكلمات هي التي تقود الوعي إلى ما هو كائن فعلاً.

سؤال: لكن هل هذا ينطبق على صلوات المزامير؟

الجواب: نعم؛ لأن هذه الصـــلوات هي صـــراخ القلب المجروح، وطلب المعونة، والتسبيح، ورؤية عمل الله في الخليقة، واستغاثة للنجاة من مؤامرات الناس وقتال الشياطين لنا. كان لدينا تســليم أظن أنه لا زال معروفاً، وهو تلاوة مزمور ٩١ "الســاكن في ســتر العلي" قبل النوم، رغم عدم وجود هذا المزمور في صــلاة النوم، أو صــلاة نصــف الليل، لكن الحرص على اختيار ما هو ضـــروري للنفس في يوم أو في لحظة معينة، هو أهم من التلاوة؛ لأن التلاوة هي أشـــبه بمن يحرك أوتار القيثارة قبل أن يعزف اللحن. والمزامير هي الحان القلوب الأسيرة.

سؤال: هل هذا الاختيار الضروري غير مقيَّد بالترتيب الكنسي؟

الجواب: يا أخي أنت تحتاج إلى استنارة. الترتيب الكنسي مدرسة كبيرة عاش فيها مَن هم أعظم مني ومنك، أنطونيوس الكبير، وأب الشركة باخوميوس، وهؤلاء لم يكونوا عبيداً، بل أبناء الله الأحرار. لذلك، إذا كنت في ضيقة وصرخت إلى الرب: "بصوتي إلى الرب صرخت"، أو "الرب نوري وخلاصي"، وكان وقت المساء، هل أنت خرجت على الترتيب الكنسي، أم لا تزال تحيا فيه؟ بل يقيني أنت لا تزال تحيا حسب الترتيب؛ لأن الترتيب له غاية، وهو الاتحاد بالرب يسوع. لذلك، الغاية هي هدف الترتيب الكنسي؛ لأننا لسنا تحت ناموس موسى، بل من الترتيب الكنسي تأخذ دائماً وبحرص المحبة، ما هو ضروري في لحظات معينة، ولعلك قرأت كيف كان النساك يرددون دائماً: "اللهم التفت إلى معونتي"، أي عبارة واحدة من المزمور، وليس المزمور كله. مَن عاش بالمحبة، تعلَّم حرية المحبة، ومَن عاش بالشريعة، وقع في قيود الشريعة.

سؤال: لم تخبرني عن كيفية الصلاة.

الجواب: لن أُخبرك؛ لأنك يجب أن تدخل أعماق قلبك وترى محبتك، هل هي حيَّة تحرك إرادتك، أم أنك إنسان تعيش بالفكر وحده، وهي تجربة كل المبتدئين الذين يفتشون عن أفكار تحرك عواطفهم الخامدة. مَن يحيا حسب فكره يسقط سريعاً في برودة القلب، ولكن من يحيا بالإرادة، عالماً أن حياته محفوظة ثابتة في صخر الدهور ربنا يسوع المسيح، سوف يجور بحر العالم بسلام.

سؤال: أرجو أن تقدِّم لي مشورة، بلاش قانون عن الصلاة.

فقال: كلمة قانون ليست عيباً، ولا هي جريمة؛ لأنها أصلاً تعني الدَّفة التي تحرك السفينة، وهي من القلم الذي يكتب ما هو صالح وضروري. ولكن، في التقوى الحقيقية، القانون هو تحديد اتجاه وليس شريعة، بمعنى إنك تحدد هدفاً، لا أن تمنع؛ لأن الشر ممنوع بالوصايا الإلهية، ولكن القانون هو الذي يشرح لنا اتجاه الحياة. ما يمنعه القانون هو ما يعطِّل الحياة، ولا يوجد لدينا قانون صدر في مجمع مسكوني أو مكاني عن الصلاة، بل نَمَت الصلوات في داخل الجماعة المسيحية، وأصبحت القوى الحقيقية لحياة الشركة، وهي

لذلك تحتوي على ما هو ضـــد الهرطقات، وعلى التســـبيح بما هو إلهي، وعلى كل احتياجات الإنسان للاتحاد بالرب يسوع بقوة الروح القدس.

المشـــورة هي أن تختار ما يمكن أن تمارســـه، وأن يكون الاختيار ليس حســـب الاستحسـان وحده لئلا تسـقط في بئر إرضـاء الذات، واعتبار إرضـاء الذات هو الحياة، ولكن الاسـتحسـان حسـب الاحتياج، يعني أن يكون اختيارك بالإفراز أو التمييز. مثلاً: أن تختار المزامير أو صـلوات التسـبحة في أثناء العمل، أو في أي وقت من أوقات النهار. كان لي صـديق جراح مشـهور، وجاء عندي وقال إنه لا يصـلِّي بالمرة، وإنه حزين جداً، فسألته: هل يوجد لديك ولو دقيقة واحدة لتقول فيها: "يا ربي يسوع المسيح ارحمني"؟ لا بُد وأنت حُر من أي عمل، ولو ٥ دقائق، لماذا لا تصلي صلاة يسوع؟ وجاء بعدها بأيام فرحاً، فقد وجد أن صلاة يسوع دخلت وملأت فراغ قلبه.

أرجو أن تلاحظ ما يلي، وأن تكتب هذا حتى لا تنساه:

أولاً: الصـلاة هي نشـاط المحب الذي يبحث عن المحبوب. هي إن شـئت، هي سعي المحبة

ثانياً: الصلاة هي أن يكون لديك معرفة حقيقية بما تحتاجه.

هي ليســـت اندفاعاً غامضـــاً نحو الرب. وفي أثناء الصـــلاة، في الخدمة الإلهية، القداس الإلهي، يوجد فرق بين مَن يصـــلي لأن الثالوث يخدمنا، وبين مَن يخدم الثالوث. نحن ننال خدمة الثالوث لنا، وأعظم ما في هذه الخدمة، هو أن يعطي لنا الرب يســـوع حياته، أي جسده ودمه.

سؤال: كيف أُصلِّي إذا كان المسيح في قلبي، بينما الكلمات تؤكد أنه خارج قلبي أيضاً؟

الجواب: نعم، في القلب، وخارج القلب؛ لأنه الإله المالئ الســـموات والأرض،

هو فيَّ وفيك. كان أبونا ميخائيل إبراهيم يقول دائماً: "بيك البركة"؛ لأنه كان يطلب حضور الرب. يا أخي المحبوب، الوعي الإنساني مكون من ثلاث طبقات متلاحمة، أي متصلة:

+ الوعي بالذات، وهو شعور الإنسان بوجوده.

+ الوعي بما في القلب من تيارات وعواصف وصراعات.

+ الوعي بما نريد وما نحتاج.

هذه لا تنقسم، بل هي متحدة، ولكن يجب التمييز العقلي من أجل الوضوح. لذلك، نحن على وعي أن الرب فينا دائماً، ومن ثمَّ نصلي ليس كمن يطلب من هو غائب، بل من يطلب من هو حاضر، ولكنه غير محسوس، يعني ليس محدداً بحواس الجسد الخمسة، ولكنه حاضر وكائن بما يمكن أن نقول إنه الحاسة السادسة، ولكن ليس بالضبط. لدينا حس روحي هو أقرب إلى "الحدس" بحضور الرب، وبسبب هذا الحضور، نكلم الرب كآخر؛ لأن تمايز الرب كآخر، ضروري جداً لنمو الإيمان به رباً ومخلصاً. المسيح يسوع حقاً فينا، ولكنه لا يذوب ولا يصبح مثل أعضاء الجسد، هو متمايز عنا تماماً، وهو ما يجعلنا نخاطبه، ليس كمن هو بعيد أو غريب أو غائب، بل كمن نعود إليه. وأقرب تشبيه لديَّ هو أننا عندما نقابل شخصاً ما نحبه، فإننا نراه كآخر، ونسرع إليه ونأخذه في الأحضان، وفي الحضن، لم يعد هذا الشخص غريباً أو بعيداً، بل ملتصقاً بنا. ولكن، يجب أن نكون على حذر؛ لأن الرب كائن فينا، فهو ليس غريباً أو مثل الصديق الغائب الذي قبَّلناه. المسيح فينا في السلام وفي الفرح وفي معرفة الآب، حتى لو كانت شحيحة، وفي فاعلية المحبة.

عندما تتحدث مع نفسك، هل انقسمت نفسك إلى قسمين؟ أبداً. النفس لا تنقسم رغم أننا عندما نصارع فكرةً أو شهوةً، يبدو لنا كما لو كنا اثنين، ولكن هكذا خلقنا ليكون في الطبع نفسه القدرة على الحوار الداخلي مع أنفسنا؛ لأن الرب يُستعلن

في هذا الحوار. وعندما يقول القديس الرسول بولس: "المسيح فيكم رجاء المجد"، فهو لا يقصد رجاءً خارجياً، بل ما نرجوه ونراه إلى أن يكمل في يوم مجد الرب يسوع المسيح.

(٣)

محبة يسوع -١

إذا كانت المحبة هي أساس كل شيء في حياتنا،

فكيف استُعلِنت محبة يسوع لنا، وكيف تعمل فينا؟

سؤال: كيف استُعلنت محبة يسوع؟

الجواب: لقد أعلن محبته لنا عندما أخذ ذات اللحم والدم، أي ذات طبعنا الإنساني (عب ٢: ١٤)، قَبِلَ أن يعبر الهوة الفاصلة بين الخالق والمخلوق، وأن يوحِّد الخالق بالمخلوق، أي اللاهوت بالناسوت. أنا أعرف كيف انحرف البعض نحو النسطورية، وأحياناً نحو الأوطاخية، ولكنني لا أريد أن أصرف ولو حتى دقيقة في مناقشة هذا الانحراف الخطير، لكن: ماذا أسس تجسد الابن الوحيد الله الكلمة؟ ليس فقط عبور الهوة بين ما خُلق مِن العدم ومَن هو "كائن" أو "واجب الوجود"، بل الاتحاد الإلهي بالطبع الإنساني. لقد أصبح في جوهر اللاهوت، أي جوهر حياة الثالوث، إنسانٌ هو يسوع، وهو الوسيط والرأس والراعي والبكر والنور وخبز الحياة والقيامة ورئيس الكهنة، وغيرها من ألقابٍ صارت تعبِّر عن حقيقة الاتحاد. فهو الوسيط بين الله والناس، وهو رأس الجسد، وهو الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف، وهو البكر بين إخوة كثيرين، وهو النور الإلهي، وهو خبز الحياة الذي يُعطى خبزاً من عند الآب. ألا ترى أن كل هذه الألقاب ليست مجرد أسماء، بل هي استعلانات عمل المتجسد، وهي كلها استعلانات محبة يسوع. هو الوسيط، وهو فعل ذلك من أجل أن يجيء بنا، ليس بشكل عقلي، بل بالشركة الحقيقية. وهو رأس الجسد الكنيسة الذي منه تولد كل الأعضاء. وهو الراعي الذي يدافع

ويحمي الخراف بحياته. وهو البِكر الذي أنقذ الإنسانية من الفساد والموت والدينونة، وجعل لنا ذات الميراث. وهو النور الذي يقودنا بمعرفة خاصة إلى الآب. ثم هو يعطي ذاته في السر المجيد؛ لأنه خبز الحياة. هذه كلها أفعال، وليست أقوالاً تعبِّر عنها الكلمات، هي أفعال، هي حقائق، وهي دعامات أو أساسات شركتنا في يسوع المسيح.

لقد جاء دوري أنا لكي أسألك: هل انتبهت إلى أن الألقاب التي ذكرتها كلها، هي استعلانات عن عمل وشخص وعطاء الرب يسوع؟

قلت: لا. هذا كلام جديد لم أسمعه من قبل.

قال: هذا مخيف. هل نحو نتلو أسماء الرب أو ألقابه بدون وعي؟ هل ترى كيف أن اسم "الوسيط" هو أساس إضافة عبارة "بالمسيح يسوع ربنا" في الصلاة الربانية، وكنيستنا هي الكنيسة الوحيدة بين كل الكنائس الأرثوذكسية التي وضعت هذه الإضافة؛ لأن كل ما يُقال في الصلاة الربانية ليس له قوة ولا فاعلية ولا وجود بدون يسوع المسيح. ولست أريد أن أشرح ألقاب الرب يسوع، ولكن يكفي هنا أن هذه الألقاب هي خاصة بالتجسد وبتدبير الخلاص، وهي استعلانات محبة البشر، فليس عبثاً أن الكنيسة الأرثوذكسية كلها، نحن والأرمن والسريان واليونانيين نقول دائماً في صلواتنا تعبير "محب البشر"؛ لأن هذا هو الاستعلان العظيم الذي جاء به المخلص.

سؤال: هذا معزِّي ومفرح جداً لقلبي. هل يوجد في هذه الألقاب سمات خاصة للمحبة؟

جواب: نعم بكل تأكيد. لازم نفكر كيف صار الكلمة الخالق وسيطاً بين الخليقة والله الآب. هو تطوُّعٌ حُرٌّ، وهو قبولُ ما ليس من طبعه، أي الناسوت، وهو ليس قبولاً مؤقتاً، بل اتحاداً أبدياً. عندما يقول الرسول إنه سوف يُسلِّم الملك لله الآب في نهاية الأزمنة "ومتى أُخضع له الابن الكل فحينئذ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي أُخضع له الكل (الآب)"، سوف يعلِّمنا الابن في الدهر الآتي أسرار حياة الملكوت الأبدي، وكيف

نحيا الحياة الجديدة، وسيكون مثالاً للخضوع، ولكن هذا الخضوع هو خضوع المحبة، وليس خضوع الأقل للأعظم. المحبةُ تُخضِع، وهو قد خضع وقَبِلَ الأقل، أي عندما أخذ شكل العبد (فيلبي ٢: ٦)، ولذلك رفَّعه الآب وأعطاه اسم يهوه، الاسم الذي فوق كل اسم؛ لأنه أعلن المحبة الإلهية الخادمة والباذلة والواهبة. هذه هي سمات من "أخلى ذاته وأخذ صورة العبد"، ولذلك السبب يقول القديس بولس إن الرب يسوع في الكنيسة يسبِّح معنا؛ لأنه الوسيط، وهو لا يستحي أن يدعونا اخوته لأنه أخذ طبعنا (عب ٢: ١١)، بل يقول للآب: "ها أنا والأولاد الذين أعطانيهم الآب" (راجع عب ٢: ١٣). لقد قرأت شرحاً لمزمور ٢١، وهو مزمور ٢٢ للقديس أوغسطينوس يقول فيه إن الرب يسوع يعترف لله الآب بكل ما نعترف به؛ لأنه رأس الجسد، وكل ما لدينا يقدِّمه الابن للآب. هو يعترف حتى بخطايانا[١]. لقد قرأت كلمات أوغسطينوس على شرح مزمور ١٤٠ وتوقفت طويلاً عن كل كلمة؛ لأن ما ذكره أوغسطينوس هو ضد تيارات سائدة في التقوى القبطية عن شفاعة المسيح الكفارية، وهي فكرة تهدف إلى فصل الرأس عن الأعضاء. نحن نعاني من هذا الفصل، ليس في هذا العصر، بل هي معاناة وُلدت في العصر الوسيط ولا تزال معنا: المسيح في السماء ونحن على الأرض، وقد غاب التعليم عن الجسد الواحد، والرأس الواحد، وشركة الجسد لحياة الرأس، وشركة الرأس الذي منه كل

---

(١) "لماذا يا رب تطلب غفران خطاياي؟ ولماذا تصلي هذه الصلاة؟ ما هي الخطايا التي تغفرها؟ والرب يجيب "في كل مرة يصلي عضو من أعضائي، فأنا الذي أصلي، ألم يقل هو: "كل ما فعلتموه بأيٍّ من هؤلاء الأصاغر فبي قد فعلتم (متى ٢٥: ٤٠)" (عظة على مزمور ١٤٠ الآباء اللاتين مجلد ٣٧: ١٨١٩). ولماذا يقول المزمور "كلمات خطاياي (مزمور ٢١: ٢ الفولجاتا)، فهو لا يصلي فقط من أجل خطايانا، بل لأنه جعل خطايانا خطاياه هو لكي يكون بره هو برنا" (مزمور ٢١: ٢ الآباء اللاتين ٣٦: ١٧٢) وأيضاً "لا يجب أن نفصل أنفسنا عن الرأس لكي يبقى هو المخلص الواحد والوحيد لجسده ربنا يسوع المسيح ابن الله الذي يصلي لأجلنا ويصلي أيضاً فينا وهو ذاته الذي نصلي له .. هو يصلي فينا لأنه رأسنا ونحن نصلي له لأنه إلهنا". نحن نصلي له لأنه الإله وهو يصلي فينا لأنه في صورة العبد. هو الخالق ولكنه صار كمخلوق. هو لم يتغير ولكنه أخذ المخلوق لكي يجدده في ذاته جاعلاً إيانا كإنسان واحد رأس جسده. نحن نصلي له وبواسطته وفيه. نحن نصلي معه وهو يصلي معنا ونتلو كلمات هذا المزمور فيه وهو يتلوها فينا (مزمور ٢١: ٢ مجلد ٣٦: ١٧٢).

رجاء مراجعة Emile Mersch, The Whole Christ وقد نُشرت عظات القديس أوغسطينوس على سفر المزامير في ٥ مجلدات باللغة الإنجليزية، وهي متوافرة على Amazon كما نُشرت العظات الأخرى في عشر مجلدات.

الأعضاء، لحياة ومجد وقوة الرأس.

ليست في شفاعة المسيح رأس الجسد كما ذكر أوغسطينوس أي مشكلة لمن يؤمن فعلاً بأن الكنيسة هي جسد المسيح. لقد حاول بعض الغربيين الالتفاف حول "جسد المسيح الكنيسة"، وخلقوا تعبيراً هو "جسد المسيح السري"، ولكن هذا التعبير يهدف إلى اعتبار أن جسد المسيح هو سري، أي غير منظور، بينما الرب يسوع لم يقل إنه غير منظور، بل هو المريض والمسجون والعريان والجائع، وإننا "أعضاء جسد المسيح"، إذ لم يذكر العهد الجديد برمته أن الكنيسة هي الجسد السري، بل "جسد المسيح".

(٤)

محبة يسوع- ٢

السمات الخاصة بيسوع مُحب البشر

كان الصـــوم الأربعيني قد بدأ، وكانت الخلوة مســـموحة لعدد قليل من الخدام. ومتابعة الحديث عن أساس المحبة كانت بالنسبة لي مسألة حياة أو موت، وعندما سألت: لماذا التشديد على المحبة؟

جاء الجواب صـــارماً، بل وصـــادماً؛ لأنه لم يكن جواب الأب، بل كانت هي كلمات الرسول يوحنا الإنجيلي.

قال: يقول الرسـول الإنجيلي يوحنا: "أيها الأحباء"، فهو يخاطب من تذوَّق المحبة وتلامس معها، "لنحب بعضـــنا بعضـــاً لأن المحبة هي من الله". وأنا أريد أن أتوقف قليلاً عند هذه العبارة. إذا كانت المحبة من الله، فهو الأســاس الإلهي لحياة كل إنســان. وعندما يتابع الرســـول بقية التعليم: "وكل مَن يحب فقد وُلِدَ من الله"، هل توقفت عند هذه العبارة؟ حسناً. إن الولادة من فوق هي في سر المعمودية، وهذا هو التعليم الرسولي، لكن الولادة من الله هي ولادة من محبة الثالوث، ليس لأنها تتم باســـم الثالوث فقط، بل لأن الله الآب أفاض علينا أعظم نعمة، وهي نعمة التبني. مَن يحب فقد وُلِدَ من فوق من الله، ولذلك يقول الرسول: "ومَن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة" (١يوحنا ٤: ٧-٨).

عندما فاتحت أبونا البطريرك بضـرورة إلغاء "أحد التناصـير"، قال لي: هذا ممكن، ولكنه صـعب بسـبب قوة العادة. لقد طلبت حتى من بعض الآباء المطارنة أن يتم إعداد الأسرة لقبول سر المعمودية، إذا كان ضرورياً أن يبقى "أحد التناصير"، ولكن الأمر ضاع في ملفات الكنيسة، وما أكثرها.

أعود فأقول لك ولغيرك ولكل مسيحي: إن كنت لم تتذوق محبة الله المستعلَنة في يسوع، فأنت غريب.

سؤال: أرجو أن تقول لي كيف نتذوق المحبة الإلهية؟

قال: هذا ليس جهداً إنسانياً، بل هو "انسكاب روح المحبة في قلوبنا" (اقرأ رو ٥: ٥): "لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا". وعندما قرأت أن الفعل "يسكب"، و"انسكاب"، هو خاص بذبح الذبائح وسكب الدم، أعترفُ لكَ أن بدني قد اقشَعَر؛ لأن الروح القدس يسكب نفسه، أي يضحي بذاته لكي يسكن في الإنسان الذي مهما كان قلبه، هو غير نقي بالمرة. هذا تنازُل الروح القدس العظيم الذي يوازي تنازُل ابن الله، وقبوله أن يصبح في صورة العبد (فيلبي ٢: ٦-٨)، وأن يظل في هذه الصورة الإنسانية حتى بعد الصعود؛ لأنه صعد بها مؤكِّداً محبته للبشر.

هل بدا لك أن أول سمات المحبة هي تنازل الله عن مجده، بل عن قداسته وقوته وسلطانه لكي يحيا فينا في كياننا الهزيل ويسكن فينا؟ بعد أن غسل الرب أرجل تلاميذه، يقول لهم ولنا ولكل الكنيسة: "إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً" (يوحنا ١٤: ١٣). هل يوجد تعليم أكثر وضوحاً من هذا يؤكد أن المحبة هي سكنى الثالوث فينا؟ وأن حفظ الوصية، أو حفظ كلام الرب هو أن نقبل التعليم الإلهي الذي يدعونا بشكل صادم: "أحبوا أعدائكم"؟ حتى مع العدو يجب أن نكون مختلفين عنه تماماً؛ لأننا إذا أبغضنا عدوَّنا صِرنا مثله، لذلك علينا أن نطلب نعمة الروح القدس، أي روح البنوة الذي يصرخ فينا: "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٦).

نحن لا نستطيع أن نحب بجهدنا الذاتي. هذا ضد الطبيعة الإنسانية، ولكن عندما ننال معونة وسكنى الروح القدس فينا، نستطيع أن نحب فعلاً. نحن نطلب سكنى الروح القدس فينا في صلاة الساعة الثالثة كل يوم، وأنا أُحب -بشكل خاص- هذه الكلمات: "أيها الملك السمائي المعزِّي روح الحق، ... هلم تفضَّل وَحِل فينا وطهِّرنا من كل دنس".

قاطعته، فقد كنت أسأل نفسي مراراً: كيف نطلب حلول الروح القدس في الساعة الثالثة (٩ صباحاً) من كل يوم؟

فقال: هذا سؤال عجيب حقاً، يكشف عن ضَعف التعليم. وهذه ليست مشكلتك أنت، بل هي مشكلة هجران التعليم عن الروح القدس طوال العصر الوسيط. لا داع لأن أفتح سيرة هذا الموضوع، فأنت تعرف ماذا حدث عندما بدأ الكلام عن العنصرة وعن الباركليت. لكن ما هو مُسلَّم لنا هو ثلاثة أمور أساسية:

أولاً: طلب الحلول الدائم فينا كل يوم هو بمثابة استغاثة القلب المجروح المشتت الذي فقد الإحساس، وأنا لا أتحدث عن الشعور العاطفي، بل عن الحس الروحي بحضور الله فيه بسبب ازدحام العقل بالأفكار والانشغال بأمور متعددة، وهذا طبيعي بالنسبة للطبيعة الإنسانية الفقيرة الضعيفة التي تتغير كل ساعة.

ثانياً: والروح لا يفارقنا؛ لأن الله لا يتغيَّر إذا تغيَّرنا نحن، بل بسبب الضعف الذي فينا وُهِبَت لنا الجسارة أن نطلب سكنى الروح القدس، وأن ندعوه لكي يأتي إلينا ويحل فينا، رغم أنه كائن فينا؛ لكي يفتح الروح الوعي الإنساني الذي أغلقته مشاغل الحياة.

ثالثاً: إن المحب يقف دائماً على الباب يقرع كما قال الرب في سفر الرؤيا (رؤ ٣: ٢٠). هو دائماً معنا ويشتاق إلينا، ولكن إذا هجرناه، فهو يطلبنا مثلما في مَثَل الراعي الصالح (لوقا ١٥: ٣ – ٧) الذي يطلب الخروف الضال ويسعى وراءه، وعندما يجده يفرح به، بل ويحمله على منكبيه. وقد وجدت أقدم رسم في دهاليز روما القديمة يعود إلى القرن الثاني عندما كان المسيحيون يصلُّون في المقابر Catacombs ووجدت فيه أن الفنان أدرك قوة البشارة بالخلاص. عندما يطلب الراعي الخروف الضال، يحدث أمرين: يسعى إليه الراعي، والأمر الثاني هو استجابة واستسلام الخروف.

أنا أفهم أن صلاة الساعة الثالثة هي طلب الاستسلام للروح القدس لكي

يطهِّرنا من كل الشوائب التي تمنع المحبة. هذا ضروري جداً.

ولكن يبقى موضوع لابُد أن نفحصه معاً، وهو سمات أو خصوصية محبة يسوع. لدينا مثالٌ من الواقع لا يحتمل التأويل، فقد لَعَنَ بطرسُ الربَّ يسوع عندما أنكره أمام الجارية حسب شهادة إنجيل مرقس (١٤: ٧١)، ورغم إنذار الرب يسوع وتحذيره بعلامة، وهي صياح الديك، إلا أنه سقط وقال: "إني لا أعرف هذا الرجل"، كأن ما حدث على جبل التجلي لم يكن، وكأن غسل الأرجل لم يعد له مكان في قلبه، وكأن وكأن مثل إقامة الموتى وشفاء المرضى .. إلخ وماذا بعد هذا، هل طرده الرب يسوع؟ يا أخي نحن نخاف من محبة يسوع؛ لأنها تضرب أساسات الثقافة والعلاقة الإنسانية عندنا.

كان عندي أب كاهن عَرِفَ أن ابنته ليست عذراء، بل هي حامل في الشهر الثالث، وجاء لطلب مشورتي، وما إن كنت أوافقه على قتلها، وقد ارتعبت من السؤال. إذ كيف يمكن للثقافة السائدة أن تجعل أي إنسان يدير ظهره لتعليم الرب. وقلت له إن الرب يسوع حَكَمَ على جنس الرجال جميعاً بالزنى؛ لأنه قال: -عني وعنك- "كل مَن نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه"، أي في أعز وأقدس مكان في الكيان الإنساني. ألسنا جميعاً زناة، وألسنا جميعاً زناة حسب الشريعة؛ لأننا عبدنا آلهة أخرى، وهي خطية شعب إسرائيل "الزنى الروحي"؟ وخَجِلَ الرجل، وقلت له: اغفر لها لكي تغفر لنفسك ولي ولكل جنس الرجال.

أعود وأكرر، لقد أعاد الربُّ بطرسَ إلى مكانه، وقال له: "ارع خرافي"، بل أخبره عن طريقة موته. هكذا كانت محبة يسوع. لم يوجِّه يسوع اتهاماً؛ لأنه أخلى ذاته بما تطلبه المحبة الإلهية، فهي بلا مطالب؛ لأنها لم تأتِ حسب الشريعة، بل بعطاءٍ جعل الرسول يقول: "المحبة لا تطلب حقها، أي لا تطلب ما لنفسها" (١كو ١٣: ٥). لقد اسقط الرسول كل حدود الثقافة وكل حدود الشرائع في (١كو ١٣: ١-١١)، الذي قال عنه غير الفاهمين إنه (دستور المحبة)، فحولوه إلى شريعة. ولكن، إذا جاز لنا أن نستخدم كلمة "دستور"، بمعنى تحديد اتجاهات، فهذا مقبول، أما أن تتحول المحبة إلى شريعة، أي إلى

قانون، فهذا ضد المحبة. وحاول أن تُراجِع معي على أي شريعة أو قانون تعرفه:

– المحبة تتأني. هل تعرف الشريعة ذلك؟

– المحبة ترفق. هل يوجد رفقٌ في القانون؟

– المحبة لا تحسد. هل يوجد حَدٌّ يمنع الحسد عندنا؟

وهكذا كل الصفات الأخرى، وهي قوة حياة المحبة القاهرة الغالبة.

لنتوقف عند محبة يسوع. مات من أجل الخطاة. فهل سبق موته دعوةٌ للتوبة؟ هتقول: نعم، في إعداد الموعوظين قديماً. أقول لك: هذا جزءٌ من الحق؛ لأن الموعوظين جاءوا من الوثنية، وكانت لهم ثقافة الجحود والقسوة والقوة والقانون والاستعلاء والرقي بالمعرفة والتقدم بالاستغلال، لذلك أبقوا على طبقة العبيد. كان من الضروري عمل تحوُّل meta-noia التي صارت "مطانية"، وهي الانحناء أو السجود، وهي تغيير اتجاه الجسم. إنها تغيير هدف الحياة، هذه هي التوبة؛ لأن يسوع يجب أن يُصبح هو الهدف، وهذا ليس شرطاً، بل هو تحديد اتجاه من أجل الوصول إلى الهدف. الشروط تدخل في العقد القانوني، أي الكونتراتو Contract.

لقد كان التجسد تطوعَ الصلاح الإلهي، ولم يكن عقداً بين الله والبشر. حتى العهد الجديد، هو عهدٌ بين الآب والابن كنائبٍ عنَّا.

سؤال: لقد "ذاب قلبي"، كما يقول المزمور، ولكن ما هو الجانب العملي أو التطبيقي؟

فقال: هل أنت مستعد لأنْ تسير حسب المحبة الإلهية؟

قلت: بعد كل هذا، يجب أن أقول: نعم.

قال: مِن كل قلبك؛ لأن ما تسـأل عنه هو أن تفهم أن الخطية لا تقف بينك وبين الرب يسوع. هي ليست العائق الذي يصورّه عندنا جميعاً الإحساسُ بالذنب. عندما يقول الرسـول الإنجيلي: "المحبة تطرح الخوف خارجاً"، ولا "خوف في المحبة"، فهو يقصـد ذلك الخوف الذي تزرعه الخطية في الإنسـان. مخافةُ الله ليسـت هي خوف الخطية؛ لأن خوف الخطية متجذِّرٌ في الخوف من عقوبة الله، والإحسـاس بأن الله سـوف ينتقم ويضـرب. هذا تصـوُّر الخطية، وهو آتٍ إلينا من الثقافة والعلاقات الاجتماعية ومن التطور، أو التراجع عن البلوغ، أعني النضـوج العقلي. كل هذه الطبقات يخترقها الروح القدس لكي يزرع فينا اسـتنارةً، ويكشـف لنا الجانب السـمائي الذي لا مثيل له على الأرض. مصيبةٌ كبرى، أننا أدخلنا الموازين الأرضية، وحشرناها في الأمور السمائية، وهذا موضـوعٌ يجب أن تفكر فيه على قدر نموِّك، وعلى قدر محبتك أيضـاً، ولن أُجيب عليك الآن لو سألتني عنه؛ لأنه سوف يمس حياة وتعليم الكنيسة أو الكنائس عندنا، وهو ما لا أريد أن أخوض فيه الآن.

أولاً: هو أن الروح يبدأ بالقديم لكي يحوله إلى جديد.

ثانياً: إن الجديد دائماً ينمو. وقد انعدم الحديث، بل والتعليم عن النمو.

سـألت: أرجوك أن تبدأ بالجديد الذي يبدأ من القديم، على أن تترك موضـوع النمو لفرصة أخرى.

قال: كلُّ الرذائل هي انحرافات الصورة الإلهية التي فينا عن عملها الأصلي، على سـبيل المثال: إن حُب القِنية والامتلاك هو لامتلاك الملكوت والاحتفاظ الأبدي به، ولكنه يتجه -بسـبب الكبرياء- إلى العنف أحياناً. الدفاع عن النفس أصـلاً هو عدم التفريط بالعطية الإلهية، ولكنه يتحول إلى العدوان والهجوم على الآخرين. بل أعظم الرذائل هي الكبرياء، ولكن الكبرياء كانت أصلاً طلب مجد الله والتَّنعُم به، ولكنها تحوَّلت إلى أنانية الإنسان واعتبار أنه هو مصدر المجد.

عندما نتمسك بالأبدي ولا نفرِّطُ فيه، فإن حُب البقاء وطلب المجد هو الصورة الصحيحة للكبرياء.

قاطعته: كلامٌ غريب .. هل هذا يعني أن لا نحارب الكبرياء التي أسقطت الشيطان؟

قال: الكبرياءُ التي لا تنمو من محبة، هي كبرياء الشيطان. أمَّا الكبرياء التي هي ثمرة المحبة، فهي تتحول ليس إلى الافتخار، ولا إلى تعظيم الذات، ولا إلى مقارنة الإنسان بغيره لكي يرى أنه أفضل مخلوقات الله، بل لكي يسعى بمحبة إلى طلب مجد الله ومحبته، وعندما تنفصل رغبتنا في مجد الله إلى تمجيد ذواتنا، نُصابُ بالكبرياء.

سألت: إذن، أنت تعتقد أن الكبرياء هي الكبرياء، ولا يمكن أن تتحول إلى شيء آخر.

قال: لا. أرجوك افهمني. لا يوجد بتر وقطع في المسيحية. البتر والقطع هو الحل الغنوسي. وحتى عندما يقول الرسول بولس: "اخلعوا الإنسان القديم والبسوا الإنسان الجديد ..، فالكيان الإنساني يظل كما هو كياناً إنسانياً، ولكن خلع القديم هو الاستغناء التام عن المثُل والقيم وكل محتويات الفكر القديمة البالية، ولذلك يقول الرسول: "تغيَّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم"، إذ يظل "الذهن" كما هو ذهننا، ولكنه يتجدد. والكبرياء هي الشر الأول، هي تحول الإنسان إلى شريعة الخير والشر، كما يحددها الإنسان لنفسه. ولكن يظل الجذر الصحيح هو طلب المجد والبقاء والحياة الأبدية، ورفض الموت ورفض الخطية. كبرياءُ بعض المبتدئين لا تسمح لهم بالزنى، ليس لأنهم أنقياء، ولكن لأن كبرياء المنصب والخدمة لا تسمح لهم بالزنى، فقد حصَّنت الكبرياء المبتدئ، ولكن الويل له لو سار في طريق العفة أو البتولية بدون جحد الذات؛ لأن تمجيد الذات يجب أن يكون محتوى، أي داخل في محبة الإنسان لنفسه ومحبته للثالوث، وأن تصبح هذه محبة واحدة غير منقسمة.

سألني: هل تعرف ما الذي يُقسِّم المحبة؟

قلت: لا أعرف، بل لم أفكِّر في هذا السؤال الذي أسمعه لأول مرة.

قال: الخطية هي التي تُقسِّم المحبة. هي التي جعلت شخصاً أعرفه يحب سيارته أكثر من زوجته. وزوجةً تحب الكلاب أكثر من الأولاد، وعندما قلت لها على الأقل يجب أن تحب الكلاب والأولاد بنفس المحبة، لم يعجبها كلامي.

ولذلك، عندما نختار ما نحب، فالاختيار يجب أن يكون بدون تفضيل؛ لأن المفاضلة تزرع الأنانية وتجعل الأهواء هي قاعدة التفضيل.

سألت: هل أفهم أن الكبرياء باقية فينا.

قال: لا. الكبرياء التي تعمل من أجل الذات، هي الشر الكامن الذي يجعل الذات أضخم ما في الوجود. ربما ما سوف يساعدك ويساعدني هو أن من الكبرياء تُولِّد عزة النفس، فلا تعد أُمَّاً كما كانت، أي مجرد كبرياء، بل تصبح عزةَ نفسٍ تجعلنا نسمو ونعلو على ما هو "واطي" و"حقير".

سألت: كيف تشرح اهتمام الشيوخ بالوصف التقليدي: "الحقير القمص، أو الراهب فلان وفلان".

قال: هذا من أهم معالم النُّسك القبطي الأصيل. الإنسان حسب طبعه حقيرٌ، ولكن حسب نعمة الله، هو ابن الآب السماوي، ولا يجب أن نجعل من حقارة الإنسان إلغاء للنعمة. "حسب الطبيعة"، لا يجب أن تسود على "النعمة الإلهية" إلى درجة الوعي بالطبيعة، وإلغاء الوعي بالنعمة.

(٥)

محبة يسوع، والتحوُّل الداخلي

كان آخر الحوار السابق هو كيف تتحول الكبرياء إلى احترام الإنسان لنفسه، وإلى عزة النفس، وإلى كرامة أولاد الله الذين يتمسَّكون بالخير حتى الموت.

وعندما سألتُ: لماذا لم يكتب؟

قال لي: إن الكتابة سوف تقع في أيدٍ غير أمينةٍ، وسوف تتحول إلى منهج، وإلى ممارسة سلطان بالمعرفة، بينما هو يحرص على التلمذة الحقيقية.

سألت: ماذا، أو بالحري كيف تشرح أن الربَّ يُوصَف بأنه "مُحتَقَر ومخذول بين الناس"؟

أجاب: هو لم يسعَ إلى ذلك ولم يطلبه، بل هذه كانت مقاومة الفريسيين والكتبة وعلماء الشريعة الذين حقدوا عليه بسبب التعليم الذي اعتبروه مضاداً للشريعة. وعندما نرتل في القداس: "بذلتَ ظهرك للسياط وخديك أهملتهما للِّطمِ"، فهذا هو كيف عاش الابن الوحيد اخلاء الذات (فيلبي ٢: ٦)، فهو لم يمش عارياً في الأسواق يطلب من الناس أن يجلدوه، وهو لم يُلطَم إلا أثناء المحاكمة، وحتى في هذا قال: "إن كنت فعلت رديأً فاشهد على الردي، وإن حسناً، فلماذا تضربني" (يوحنا ١٨: ٢٣). لم يتنازل الرب يسوع عن كرامته، ولم يتراجع لأن الخوف الذي عَبَرَ به في بستان جثيماني قد تحول بقوة المحبة إلى العطاء، ولذلك قال: "مملكتي ليست من هذا العالم" (يوحنا ١٨: ٣٦)، بل يقول في جسارةٍ أمام بيلاطس: "أنت تقول إني ملك. لهذا قد وُلِدتُ ولهذا أتيتُ إلى العالم لأشهد للحق. كل مَن هو من الحق يسمع صوتي" (يوحنا ١٨: ٣٧). فهو لم يفقد إدراكه برسالته، بينما نحن عندما يسيطر علينا الخوف، ننسى أننا أولاد الله الأحرار،

ولذلك نسقط بسهولة. احتقار الإنسان لذاته هو خطأٌ قاتل يجب أن نكون على حَذَرٍ منه. إن كنا نحتقر أفعالنا لأنها ضد وصايا الرب، فهذا مطلوب، ولكن أفعالنا ليست هي الذات ولا هي الكيان. كل أفعالنا –مهما كانت حسنة، أو رديئة– لا تساوي الكيان الإنساني. الكيان الإنساني أعظم من كل الأفكار وأكبر من كل الأفعال؛ لأن الكيان الإنساني، أي الذات هي "صورة الله". أنت أكبر من كل أفكارك، حتى المقدسة منها، وهذا ليس استعلاءً، إذ أن المقارنةَ ظلمٌ فاحش؛ لأن صورة الله لا تقارَن بأي شيء، فما بالك عندما تحتقر صورة الله بسبب أفعالٍ مذمومةٍ؟ ولذلك يحذِّرُنا يعقوب الرسول من احتقار الآخرين قائلاً: "به نبارك الله الآب وبه نلعن الناس الذين قد خُلقوا على شبه الله" (يع ٣: ٩). وبالطبع نحن نلعن الآخرين عندما نرى أعمالاً شريرة، ولكن هذه هي المصيبة الأكبر في حياتنا، وهي أن كيان الإنسان = أفعال وأقوال الإنسان، وعلامة (=) هي أساس المشكلة؛ لأن الإنسان أعظم من أن يوزَن بما يقول أو بما يفعل، وحتى إذا قلنا إن الرب يسوع حَمَلُ الله الذي جاء لكي يرفع خطية العالم، وهي هنا حصنُ الموت، فهي ليست الأفعال الإنسانية، بل جذرها وهو الموت. وغفران الخطايا هو تطهير الكيان من الأصل، من الجذر، من الينبوع، وهو لاحقٌ بالكيان.

لقد حصلتُ على أكبر تعزية في حياتي عندما قرأت عبارة القديس أثناسيوس الرسولي: "الشَّرُ عدم"؛ لأنه من اختراع عقل الإنسان. وتأملت أن كل أفعالي الشريرة مهما كانت، هي سبب أوجاع نفسي؛ لأنها جلبت عليَّ الموت والحزن وضياع غاية الوجود، وهو أن أصير فعلاً "صورة الله ومثاله".

كانت كثافة الأفكار وكثافة الشرح جديدة جداً، ولم أسمعها من قبل، وكنتُ فرحاً، فقد بدا كلُّ شيءٍ واضحاً. لأن الحياة القديمة هي الطفيليات التي تنمو على حساب الأصل، وتحاول أن تخنق وتميت الأصل، وهو صورة الله.

ساد صمتٌ لفترةٍ، وخشيت أن أتكلم، ولكنه بادرني بسؤال:

قال: هل هذا الشرح غريب؟

فقلت: نعم، جديد.

قال: إننا يجب أن نعود إلى أصل كل الأشياء، وإلى أصل كل العقائد، وأصل كل الطقوس، ولا يجب أن نعيش -مهما كانت التكلفة- في تقوى شعبية تجعل من تعليم الرب دعوةً أخلاقية. هذه هي الضربة القاسية التي جاء بها عصر الإصلاح، أو بالحري جاءت مع عصر الإصلاح؛ لأن الذين ثاروا على كنيسة العصر الوسيط، كانوا يريدون العودة إلى التعليم الرسولي، وجاء الفشل بسبب عدم الوضوح في الرؤيا.

ما نراه عقلياً، يجب أن يكون في حدود ثلاثة معايير، أو داخل دائرة واحدة:

– **المعيار الأول**: العلاقة المستيكية بين الرأس والجسد، الرب وجسده الكنيسة؛ لأن هذه العلاقة تحتوي على كل ما أعطاه الرب لنا. هي من الرأس لكل الأعضاء.

– **المعيار الثاني**: التعليم ليس فكراً ولا نظريةً تُقال. التعليمُ هو علاقة شركتنا في الحياة الإلهية في الوسيط ربنا يسوع المسيح، وبنعمة وعمل الروح القدس. ولذلك، كل فكر مهما كان، يجب أن يتجه إلى شرح هذه العلاقة.

– **المعيار الثالث**: التحول الذي يحدث فينا، وهو ما أصبح الآن يسمى "التوبة"، لأن المعمودية تعطي لنا كأطفال، وقد غاب من الوعي لا من الواقع قوتها، فصارت التوبة -حسب الدرجي وافرام السرياني وباسيليوس وذهبي الفم- هي "المعمودية الثانية". ولكن خطر هذا التعليم هو الوقوع في بئر الخلاص بالأعمال، إذ يظن مَن يتوب إنه بالتوبة، سيدخل ملكوت السموات، ولكن ملكوت السموات، هو مُلكُ الله الآب على القلب هنا. ولذلك، يجب إصلاح الترجمة العربية؛ لأننا حسب الأصل القبطي لا نطلب "اِهدنا إلى ملكوتك"، فقد تمَّت البداية بالإيمان، ولكن "أعطنا الطريق إلى ملكوتك". لقد استنار قلبي عندما تعلَّمت اللغة القبطية، وأدركت أننا نطلب -بعد المجمع- أن نسير في ذات الطريق إلى الملكوت ⲉⲯⲟⲩⲛ ⲯⲉϫⲟⲛ ϣⲓⲙⲱⲓⲧ ولكلمة ⲉⲯⲟⲩⲛ رنينٌ خاصٌّ عندي؛ لأن الطريق هو في داخل الملكوت، وليس هو بداية.

هذه المعايير الثلاثة هي دائرة التدبير، عليك أن تحيا داخلها؛ لأن خارجها يوجد أنبياء كذبة لا يعرفون أساسات التدبير.

سألته: هل يمكن أن نعود إلى المحبة؟ لأن الكلام واضح، وهو أنه لا يوجد بتر، بل تحولٌ، فكيف يحدث التحول بالمحبة؟

أجاب: من الأخطاء الشائعة أن بعض المعلمين -بسبب قلة الخبرة- يقولون للأخوة: لو كان المسيح هنا في نفس الموقف، فماذا سيفعل؟ وكأن المسيحَ شخصٌ يحيا خارجاً عنَّا لا فينا، وكأنه قد قيَّدَ حريتنا. هذا هو فكر المأسورين بالشريعة، ولذلك، لم يترك لنا الرب وصايا عن طريقة السير أو الملابس أو الأكل أو النوم أو الاستحمام أو حتى الكلام مع الآخرين. التشبُّه بالرب هو أول شيء: حِبُّوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا، وأيضاً بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حبٌّ لبعضكم البعض". وعندما يقول: "الذي عنده وصاياي ويحفظها، فهو الذي يحبني، والذي يحبني، يحبه أبي، وأنا أحبه، وأنا أظهر له ذاتي" (راجع يوحنا ١٤: ٣١). وما هي وصايا المسيح؟ هي أن نحفظ كلامه عن الآب، وعن المعزِّي. لذلك، أرجوك أن تقرأ جيداً إصحاحات ١٤، ١٥، ١٦، ١٧ من إنجيل يوحنا، وهي تسمى عندنا إصحاحات البارقليط في جمعة البصخة.

- تشبَّه بالرب في محبته؛ لأن هذا ينال معونة الرب نفسه، وعمل الروح القدس في القلب (رو ٥: ٥).

- تشبَّه بالرب بأن تكون حياتك ملكاً له كما كانت حياته ملكاً للآب.

- تشبَّه بالرب في أن تحمل صليبك وتتبعه. وحَملُ الصليب في أمانة التعليم سيكون أصعب صليب على كثيرين.

والجزء الهام من سؤالك: كيف نتحول بالمحبة؟

والجواب: هو من اختباري، وعليك مراجعة الأسفار الإلهية في هذا الشأن.

أولاً: تقودنا محبة الذات إلى تفضيل الذات حتى على الرب نفسه، ومَن هو "مربوطٌ" بهذه السلسلة، يجب أن ينال "الحل" من الرب نفسه، وأن يَفُكَّهُ ويدمِّر القيد، أي الافراط في محبة الذات. يأتي عندي شابٌ يافعٌ، لديه حميه وحرارة، ثم يبكون أحياناً بسبب الاستعباد للعادة السرية، وأقول للكل ولنفسي: ما يُسمى بالغريزة الجنسية هو نزوعٌ للبقاء وجذره كامن في محبة الإنسان لنفسه، فإذا أفرط الإنسانُ في محبته لذاته، وَجَدَ متعة الجسد شِبه سعادة أبدية.

وهنا صَلبُ الذات. لا عفةَ ولا بتولية حقيقية، ما لم يتم تعديل مسار محبة الإنسان لذاته. كيف ذلك؟ بثلاثة اتجاهات أساسية لا يمكن أن يكون لها بديل:

– **الاتجاه الأول**: هو هدف الحياة. مَن كان يسوعُ هو غايته، سوف يحارَب بالفكر، ولكنه يغلب إمَّا بالمعاناة أو الدموع أو الصبر أو بتأمُّل المصير الأبدي. يسوعُ هو الدواء، هو الغاية، وهذا يُعدِّل اتجاه الحياة.

– **الاتجاه الثاني**: هو قناعة الإيمان بأن الجسد هو للمسيح؛ لأن الخطية تجعل من الجسد أداةً يملكها العقل، ولكن علينا أن نكون على حذرٍ. أنا والمسيح جسدٌ واحدٌ، وحتى إن اخطأت، فهو لا يتنازل عن ملكية جسدي؛ لأن هذا الجسد هو ميراث قيامته. مَن كان جسده ملكاً مشتَرَكاً مع الرب، سوف يفكُ الربُّ قيده؛ لأنه بكل اشتياق يطلب هذه الحياة المشتَرَكة.

– **الاتجاه الثالث**: هو مراجعة الإدراك الدائم بأن إرضاء الذات ليس هو طريق البالغين، بل طريق الأطفال الرُّضَّع؛ لأن الأطفال الذين تركوا الرضاعة يتعلمون كيف يختارون نوع الطعام الذي يحبونه، إمَّا بسبب اللون أو الطعم أو الرائحة أو لكل الأسباب الثلاثة. ولذلك، عندما نصل إلى البلوغ، أي التقدُّم في الحياة الداخلية والنمو، ندرك أن محبة الذات يجب أن تبقى، ولكن في إطار التجديد، أي أن تتجه لخدمة الآخرين، وإلى

تفضيل ما هو أبدي.

أقول لك كلمة أخيرة: مَن يظن أنه تحرر من عادةٍ، عليه الحَذَر. وأنا لا أعني العادة السرية وحدها، بل كل العادات التي تكبّلُ إرادتنا. والحَذَرُ هو أن الطفيليات العالقة بنا يجب أن "نخلعها"؛ لأن ما يصفه الرسول بولس باسم: "الإنسان القديم"، هو الإنسان المكوَّن من قناعات وعادات كلها مبنية ومؤسَّسة على الإفراط في محبة الذات. وهذه المحبة لا تنتهي إذا أدركناها، بل تُصـــلَب دائماً؛ لأن المصـــلوب الحي هو الطبيب الذي يعالج إفراط الذات الذي فينا.

كانت لديَّ فكرةٌ تلحُّ عليَّ بقوةٍ وخشيت أن أقطعَ الحوار بما لديَّ، ولكنه يبدو أنه أدرك بحسّه الروحي ما يجول في خاطري، واستطرد في إيجازٍ شديد:

قال: إن السُّـذَّج الذين لا زالوا يعيشـون بذات الفكرة الفرعونية القديمة بأن الله لديه ميزان للأعمال يظنون إن الأعمال التي سـوف يُحاسَـب عليها الإنسـان هي كم مرة كذبت؟ وكم مرة سـرقت ... الخ، ولكن الحقيقة هي غير ذلك. لا يوجد حسـابٌ على الكم، ولكن حساب المحبة هو الحساب الدقيق. السارقُ لا يُحب غيره، ولذلك يسرق. الكذابُ مفرطٌ في محبة ذاته، ولذلك تدعوه الكبرياء إلى التستر على خطاياه. القاتلُ يفرط في محبة ذاته، ولذلك حياته أهم من حياة غيره. الزاني يحب جسـده، وهو آلة تحقيق الذات التي ضُـربت بالأنانية، وهلم جرًّا. هؤلاء الذين فشـلوا في المحبة، فشـلوا في خلع الإنسـان القديم، وفي صَـلبِ الأهواء، وهم لذلك، جعلوا أنفسـهم غرباء عن ملكوت الله .. دينونة المحبة تدخل إلى أعماق النفس، وحسـناً من أجل الحق الأبدي، قال الرسـول يوحنا الإنجيلي: "الذي لا يحب لم يعرف الله" (١ يوحنا ٤: ٨)، فكل ما هو ضـد المحبة، هو ضد الحياة الإلهية.

(٦)

محبة يسوع الخاصة للخطاة

كان أبي يحذِّرني دائماً من الوثنية، وكان أهم تحذير هو تصــوُّر الله كما نتصــور نحن أنفســنا، أي أن نتصــوره إنســاناً مثلنا يغضــب ويثور ويحطم مثلما نفعل نحن عندما ننفعل، بل كان أهم ما قيل إن بقايا شــجرة معرفة الخير والشــر فينا هو أننا نحن أنفســنا صِــرنا شــريعة الخير والشــر، وأننا صــرنا مقياس كل شــيء حتى بعد أن قبلنا الإيمان، إذا أخضعنا الإيمان وبشارة الإنجيل لمقاييس وأحكام العقل.

وقال أيضاً إن ترياق الوثنية التي ورثناها من الأجيال السابقة هو تجسد الابن ربنا يســوع. للتاريخ فقط، كان د. شــفيق أســعد إبراهيم قد عاد من انجلترا ومعه عدة كتب، وقدَّم لي ترجمة انجليزية جيدة لكتاب "تجســد الكلمة" للقديس أثناســيوس، وكان لدينا ترجمة عربية لا بأس بها للقمص مرقس داود. ودار حوارٌ حول الكتاب مع د. شفيق الذي كان يسكن في منازل الطلبة الملاصقة لكنيسة مار مينا حيث توحَّد القمص مينا المتوحد — دام الحوار فترة طويلة، وكان القمص مينا المتوحد يسألني دائماً عما تعلمته من "تجسد الكلمة". ومع مرور الأيام بدأت أفهم أن معنى وغاية التجسد هو استعلان الله في اللحم والدم، وهو ذلك الاســتعلان المشــرق دائماً كل يوم في ســر الإفخارســتيا في كل قداس يومي، وهو ما كان يفوق إدراكي، إذ كانت الصــلوات تُصــلَّى كما لو كانت جديدة كل يوم؛ لأن المصلِّي وخادم السرائر كان قد امتلأ من الروح القدس والحضور الإلهي الدائم في حياته.

مِن هذه النقطة بالذات ســألت عن الله الذي يملأ الســموات والأرض، وهو ما

نردده في القداس: "قدوس قدوس ... السماء والأرض مملوءتان من مجدك الأقدس"، وعن انتشار الشر، وكيف -بحرية الإرادة- ندير ظهورنا إلى الله نفسه لكي نفعل ما يرضي الأهواء والشرور الكامنة فينا، ومع ذلك لا يمنعنا الله، ولا ينتقم منَّا، بل يترك لنا الفُرَص لكي نعود إليه؟

الله لا يفرض وجوده أو حضوره، هو يخفي مجده لكي يترك لنا الحرية والقرار الذي نريده. استعلان الله في العهد القديم كان له ثلاثة مظاهر:

- الاستعلان الشخصي للبطاركة.
- الوحي للأنبياء.
- التدخُّل في بعض أحداث التاريخ.

المصالحة مع الخليقة:

وطبعاً سمعت عن سدوم وعامورة والطوفان. هذه أحداث فريدة ترك الله الإنسان فيها أمام قوة الطبيعة؛ لأن الإنسان كسر العهد مع الكون، إذ يقول النبي: "تعدُّوا العهد كآدم" (هوشع ٦: ٧)، وعهد الله مع "النهار والليل" (أرميا ٣٣: ٢٠)، فهو العهد الأبدي (أش ٢٤: ٥). واغتصاب الخليقة، ثم عبادتها هو انفلاتٌ أدَّى إلى الكوارث التي نسمع عنها، ليس لأن الله هو سببها، بل تعدِّي الإنسان لم يُلزم الكون بأن يحفظ الحدود، والخليقة التي تصرخ إلى الخالق يمنحها الله الحرية. ولذلك، إذا كان الله قد منع المياه من أن تُغرق اليابسة (أش ٥٤: ٩) ثورة الخليقة على كسر العهد الأبدي الذي تجاسر عليه الإنسان، تجد عكسها في حياة القديسين الذي عاشوا مع حيوانات مفترسة مثل برسوم العريان الذي كان في صحبة ثعبان، والأنبا بولا الذي كان الغراب يُحضِر له الطعام مع أن الغراب "خطَّاف"، كل هذه استعلانات نعمة المصالحة مع الكون. ولذلك، عندما نرتِّل الهوسات (التسبحة السنوية)، نحن ندخل المصالحة مع الكون بالتسبيح،

وإيماناً مِنَّا بأن المخلص ربنا يسوع المسيح صالَحَ الكلَّ لله الآب بأقنومه، وحقق الصُّلحَ بدم صليبه مع كل ما على الأرض وكل ما في السموات (كولوسي ١: ١٩-٢٠)، واختبر الآباء علامة الصليب في هدم قوى الشر والمصالحة مع الثالوث القدوس.

خوف الوثنية القابع في الوجدان:

التحرر من السلوك والعادات والاعتقاد الخاطئ يستغرق وقتاً، وهو الوقت اللازم الذي يطرد فيه الإيمانُ كلَّ ما هو شرير وخاطئ وبلا هدف.

الشعور بالذنب يلازمنا ويفارقنا عندما ينمو الإيمان، وتتغير الثوابت الخاطئة التي تسللت إلينا عبر الطفولة والمراهقة، ومن المجتمع، بل ومن الكنيسة.

بدايةُ الإفراز -كما كان يقول أبي الروحي- هو أن يطهِّر المسيح بحياته وتعليمه، كل ما استقر من "مفاهيم خاطئة" زَرَعَتها الخطية، وأخذت قوتها من الخوف من العقاب الذي يلازم الإنسان بسبب الخوف من الموت.

كلما عاد إليك الخوف من العقاب، كلما تعلَّمت أن إيمانك انحرف عن الهدف، وهو "الشركة". وهكذا يجب أن تحيا الحياة المسيحية الحقيقية التي لا تعرف الخوف، أي التي ليست مؤسَّسة على الخوف، بل على الإيمان والمحبة.

نحن نحمل في قلوبنا ذلك الخوف، ونظن أن الرب يسوع مثل البشر الذين نعرفهم، ولكن هذه ملاحظات أتركها معك لكي تفكر فيها:

- هل طرد الربُّ يسوع خاطئاً واحداً؟ وأعظم مثال هو اللص اليمين الذي صرخ طالباً أن يذكره الرب.

- ماذا فعل المرأة التي أُمسكت في ذات الفعل؟ كان يملك أن يرجمها، فهو بلا خطية، ولكنه؛ لأنه بلا خطية، لم يرجمها، لأن الخطية تخلق فينا الشعور بالذنب، وهو ما

يجعلنا نفرح بالعقوبة، عقوبتنا نحن وعقوبة الذين يخطئون، نسمعها في لغتنا العامية، يستاهل اللي يجرى له.

– وكان يأكل ويشرب مع الزناة والعشارين، ولم ينتظر أن يدعوه زكا، بل دخل إلى بيته وطلب الرب الضيافة.

وما أكثر الذين كان لهم قبول شخصي عند الرب، ولذلك وُصِفَ الرب بأنه "محبٌ للعشارين والخطاة" (لوقا ٧: ٣٤).

هل تعرف ما هي المحبة الخاصة للخطاة؟

أجبت بالنفي؛ لأن السؤال نفسه كان جديداً، وكان يمثل تحدِّياً لم أحاول أن أتصدى له من قبل، كما أن انتظار إجابة أبي كانت عندي أهم من أفكاري.

قال: إن الشريعة الموسوية كانت تحكم على الخطايا، وكانت الخطايا نوعين:

الأول: ما يهدد العلاقات الاجتماعية مثل العبادة الوثنية والسحر والعرافة.

الثاني: الخطايا الشخصية التي يرتكبها الشخص مثل الزنى والقتل ... الخ.

ولم يكن في الشريعة أي مجال للغفران أو التجديد، بل كمال العقاب. وكانت نظرة الجماعة هي احتقار الخاطئ وفرزه، وهو ما جعل الخطاة يخافون من الجماعة، ومن العقاب. وجاء يسوع بتعليمٍ احتوى على جانبين:

– الأول: هو إعلان أبوة الله الآب.

– الثاني: هو الكشف عن شخصه بمعجزات الشفاء، حتى لمن هم ليسوا من أصل يهودي، مثل عبد قائد المئة — ابنة المرأة الكنعانية، بل جاءت بشارة السامرة عن طريق السامرية. وكان هذا مستهجناً حسبما ذكر الإنجيلي (لوقا ٧: ٣٤). هذا ما نعرفه

عن خدمة الرب في مجتمع يفرز الخطاة ويحاكمهم. ولكن ماذا فعل يسوع؟ أظهر شفقةً خاصةً ومحبةً خاصةً. فما هي هذه الخصوصية؟ ساد صمتٌ مرَّ كأنه دهرٌ، وأنا أفكِّر في ما هي خصوصية محبة الرب للخطاة؟ وقطع الصمتَ صوتُ المعلم وهو يقول: "الخاطئ هو شخص مستعد لأن يضحي حتى بحياته في سبيل إتمام شهوته. هو شجاع لدرجة التهوُّر، إذ تقوده الشهوة إلى التعدِّي على الوصية بدون أي تردد. فهو لا يعرف التردد إذا أراد أن يخطئ. هذا من جهة الخاطئ، أمَّا من جهة الرب نفسه، فهو يرى أن تحوُّل الشجاعة إلى بذل، وأن قبول التضحية حتى بالعلاقات الإنسانية في المجتمع، تتحول إلى تلمذة واتِّباع الرب، بل تنمو بمحبة حقيقية للذات وللقريب، تنطلق من محبة الله الآب التي أصبح الخاطئ يعرفها لأنه مدعوٌ إلى الملكوت، وإلى تغيير سير اتجاه حياته، فإن هؤلاء الخطاة يصبحون شعلة محبة.

لكن هناك أسباباً أخرى للخصوصية رآها الرب، ولا نراها نحن عندما نغلق أبواب الحواس كلها بما فيها الحدس، ولا نرى إلا أنفسنا فقط. ومن ضمن هذه الأسباب هو رؤية الرب –لمحبته– لمن هو في أشد الحاجة إليه. هو الحياة التي تحارب الموت، ولا ترضى به لأنه هو خالق الحياة. هو المحبة التي لا تقبل الكراهية، بل ترجو أن تتغير الكراهية، ومعه تصبح الكراهية قوة محبة فعالة. هو النور الذي يريد أن يبدد الظلمة، وهو الجود والصلاح الذي لا يعرف البُخل. وعندما تجتمع كل هذه القوى، فإنك ترى أن للرب حياةً تختلف عن حياة الخطاة، ولذلك لا يضن الرب ولا يتراجع، إنه الطبيب الذي يفتِّش عن المرضى، والراعي الذي يطلب الضال، والصالح الذي يوزِّع بسخاء. فالظلام يستدعي إشراق النور، والموت يُعالَج بالحياة، وكل مَن هو مستعبد، ينال الحرية.

إنها خصوصية السيد محب البشر. وإذا كنت تريد أن تعرف، عليك أن تدرس الأمثال التي ضربها الرب يسوع، ليس للبحث عن الجانب الرمزي، بل عن العلاقة التي يذكرها المثَل. علاقة الأب بالابن الضال. علاقة المرأة بالدرهم المفقود. بدون المحبة لا يمكن فهم العلاقة، مهما كان التفسير صحيحاً. كيف تفهم صلب الرب بين لصين؟ واحدٌ آمن ودخل الفردوس، والثاني هلك بجهله.

لم يَمُت السيد وحده، بل من وراء الزمان، صُلِبَ ومعه لصٌّ سرق الفردوس – كما قال إفرام السرياني– فما هو المستعلَن في خصوصية محبة الرب للخطاة؟

– **أولاً**: لم يفرض الربُّ شروطاً مسبقةً، ولا حتى شروطاً لاحقة. قال للمرأة التي أُمسكت في ذات الفعل: "ولا أنا أيضاً أحكم عليكِ"، مع أنه كان يملك الحكم؛ لأنه "بلا خطية". وعندما يسأل: "يا امرأة أين الذين حكموا عليكِ؟"، فقد بَدَّدَ جميع القضاة.

وليس هناك شرطٌ مُسبَق؛ لأن "المحبة لا تطلب ما لنفسها". كذلك ليس هناك شرطٌ لاحق، بل دعوة لحمل الصليب؛ لأن الرب قال: "إن أراد أحدٌ"، ولم يقل: "يجب على مَن يريد أن يكون لي تلميذاً". لا شروط. ومحبة بلا سبب هي ختم المحبة الإلهية.

محبتنا نحن لأسباب، تقوم الأسباب وتسقط الأسباب. صُلب الربُّ عنا، ونحن لا نعرفه ولم نؤمن به عندما صُلب وقام.

– **ثانياً**: أنها ليست علاقة عاطفية حسية فقط، بل هي علاقة كيانية. ماذا فعلتْ بنا الخطية؟ تجعلنا نُحب مِن على بُعد، ولا نعطِ أنفسنا إلا إذا كانت النعمة تعمل فينا، أمَّا الرب فهو يعطي من كيانه، أعطى ذاته في العلية، وسكب روحه في العنصرة، ويقدِّم ذاته على مذابحنا في كل قداس، يدعو من يريد أن يأتي إليه، وهو هنا لا يقدِّم مشاعر فقط، بل "جسدي ودمي"، أي أنا "من يأكلني يحيا بي" (يوحنا ٦: ٥٧). يوحِّدنا الرب بكيانه رغم ما فينا من نقصٍ وجهل، بل ومقاومة –أحياناً– لعمله الإلهي، ولكنه لا يكُّف عن المثابرة وملاحقتنا، هذا غير معروف بالمرة على مستوى البشر.

يقول الرب يسوع لكل نفس: "أُحبُكِ حتى وإن كان في قلبكِ بغضة"، فهو يسعى دائماً لكي يحل فينا، لا لكي يبقى معنا في معية صداقة، بل لكي يكون فينا، فهو "يحل بالإيمان في قلوبنا" (أفسس ٣: ١٧).

– **ثالثاً**: وماذا يمكن أن نضـــيف إلى ذلك؟ هي وحدة كيانية، رَبَطَ الربُّ فيها مصـــيره أي حياته ووجوده وعزته ومجده وأُلوهيته بنا نحن الضـــعفاء والفقراء. عندما قرأت كلمات الرب في (رؤ ٣: ٢١) "من يغلب سوف أعطيه أن يجلس معي على عرشي كما غلبت أنا وجلســـت على عرش أبي"، فقد غلبني البكاء لعدة أيام، حتى أنني شـــعرتُ بضعفٍ جسداني لم أشعر به من قبل، وهو بكاءٌ من شدة تأثري بصلاح الرب يسوع. الغلبة هنا هي موتنا نحن على الصـــليب الذي اخترناه للتلمذة، وهو إيماننا لأن الإيمان اختيار والاختيار قرارُ المحبة. هكذا تعطيني يا رب أن أجلس معك على عرشـــك، عطية وليســـت قدرة. وعندما قرأت عبارة أوغســـطينوس I am you لم أرغب في ترجمتها. "هو وأنا كيان واحد"، أو "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له".

مضى بعض الوقت وكنتُ في أشد الحاجة إلى تطهير فكري مما علق به من أفكار مســـبقة "ومثاليات" عن المحبة، ليس لها علاقة باســـتعلان محبة الله الآب في ابنه يســـوع المســـيح. وكانت فرصـــةً لمراجعة النفس دامت بعض الوقت، وجاء عيد العنصـــرة، وطقس الســـجدة، وشـــبعت من الصـــلوات، ولم أُفكِّر في متابعة الحوار، فقد أخذت ما يكفي في الوقت الحاضـــر، ولكن كان لقاءٌ غيرَ مُرَتَّبٍ. ســـألني أبي عن أحوالي، وعن نقاء قلبي، ونصـــحني بدراســـة عظات أوغســـطينوس على ســـفر المزامير، وقال إنه يشـــعر بأن الترجمة الإنجليزية التي نُشرت (١٨٨٨) مختصـــرة. بعدها بعدة ســـنوات ظَهَرَ أن حِسَّه القلبي كان صحيحاً، فقد نُشرت الترجمة كاملة في ٥ مجلدات. كان يرى أن أوغسطينوس كتب الكثير عن المحبة الإلهية، وأننا نحتاج لدراسة كتابه عن "الثالوث"، فهو صاحب المقولة المشهورة: "الله محبة، لذلك هو ثالوث"، المحب والمحبوب والمحبة، مع ملاحظة أن المحبة ليســـت علاقة عاطفية، بل هي أقنوم الروح القدس. كان الســـير خارج الدير في البرية في المســـاء بالذات ممتعاً، وكان أبي يقول دائماً: إن صـــغر حجم الإنســـان، واتســـاع دائرة الكون، هو درسٌ منظور عن عمل الله كخالق، لا يمكن رسم حدود لعمله الإلهي.

قال: بعد أن قام الرب من الأموات وكان التلاميذ مجتمعين بســـبب خوفهم، وقف الرب وقال لهم: "سلامٌ لكم. ونفخ وأعطاهم نسمة حياة، أي الروح القدس"، دون

أن يسألوه، بل قبلَ مجيء المعزِّي في يوم العنصرة، عطيةً بلا سبب سوى الجود الإلهي. ولم يكن أحدٌ من التلاميذ هو الذي طلب العنصـــرة، بل وَعَدَ الربُّ بها وحَقَّقَ الوعد. هذه هي المحبة، تعطي بلا سـبب، بل حتى بلا طلب، وبلا اسـتعداد. من جانبنا، الاسـتعدادُ مطلوبٌ للقبول، لكنه ليس شـرطاً، ولا سـبباً، بل المحبة هي سـبب العطية. نفخةُ الروح القدس أعادت إلينا نسـمة الحياة، فقد تم تجديد الطبيعة الإنسـانية؛ لأن الرب قام، وصـار آدم الجديد "المانح الروحي للروح القدس". أمَّا في العنصرة، فهو انسكابٌ على الكنيسة، انسكابٌ تم بعد تجديد الكيان الإنساني في يسوع.

أعود وأكرر، إن خصـوصـية محبة المسـيح لا يمكن شـرحها، ولكن توجد ثلاثة حقائق لهذه المحبة:

أولاً: ثباتٌ إلهيٌّ عجيب، يواجه الضـعف الإنسـاني والعجز بثباتٍ لا مثيل له. نحن نتردد ونتراجع، أمَّا هو، فلا يتردد ولا يتراجع، بل ثابتٌ، ولذلك يقول الرب: "اثبتوا في محبتي" (يوحنا ١٥: ٤).

ثانياً: أبدية المحبة، فهو أحبنا قبل أن نحبه نحن -كما قال الإنجيلي- ليس لأننا كنا قديسـين، بل اختارنا فيه الله الآب قبل تكوين العالم (راجع أفسـس ١: ٣). أبدية المحبة الإلهية لا تتغير بزمانية محبة الإنسـان، بل تعمل دائماً لرفع الحياة الأبدية إلى ذلك المستوى الإلهي.

ثالثاً: وهي محبة تُعبِّر عن حياة الأقنوم. وعندما قال الرسـول: "الله محبة"، فالمحبة لم تُضَـف كصـفة مكتسبة، بل هي حياة الله نفسـه، ولذلك قال: "كل مَن يحب قد وُلِدَ من الله". "وُلِدَ"؛ لأنه عَرِفَ أُبوة الله الآب الذي منحه بنوةً بدون اسـتحقاق، وبدون أي استعداد. المنحة أو العطية تأتي، ثم هي نفسها التي ترتِّب الاستعداد فينا.

قال: لم نسـتوعب بعد ما جاء بتجسـد الكلمة. أولاً الحلول المتبادَل بيننا وبين الرب يسـوع. هو فينا؛ لأننا نحن فيه. المسـيح فينا هو عطاءُ الآب السـماوي لنا، ولذلك

قال الآب: "له اسمعوا"، فقد جاء ليس بعلاقة خارجية مثل علاقة الإنسان تحت العهد القديم، بل جاء بعلاقة شركة.

عندما نقول إن الإنسان خاطئ، فإن الخطية هي التي استدعت مجيء الله الكلمة. كم فرحت عندما قرأت في كتاب "تجسد الكلمة" إن سقوط الإنسان هو الذي استدعى صلاح الله وتجسده (راجع فصل ٤: ١). وتجسُّد الكلمة جعل الإنسان في يسوع المسيح حيًّا متَّحداً بالله الثالوث إلى الأبد. "المسيح فيكم رجاء المجد"، وأيضاً: "يحل المسيح بالإيمان في قلوبكم"، وأيضاً: "إن كان أحدٌ في المسيح، فهو خليقة جديدة". هذا هو حلول الحياة. نحن فيه؛ لأن كل عضو في جسد الرب، يأخذ حياته ووجوده من الرأس. وهو هنا حلولٌ أبدي، ولا يجب أن نخاف من الحلول، فهو رجاء الحياة الأبدية. إن خطايانا هي التي تستدعي حلوله فينا لكي يطهِّرنا ويجدِّدنا ويحوِّلنا إلى خليقةٍ جديدةٍ. والسُّكنى هي دلالة الشركة، ولا يوجد فرق حقيقي. أصبحت أخشى على الإيمان من الاجتهادات اللغوية التي لا تتمسك بالإيمان. البحث اللغوي جيد ومطلوب، ولكن المسيح رب الحياة ليس كتاباً. الإنجيل هو بشارة حياة، أي حياة يسوع، هو مجيء الله الكلمة، هذا هو معنى كلمة بشارة.

ما هي محبة يسوع الخاصة التي يؤكِّدها تجسده؟

أولاً، الاتحاد الدائم بين اللاهوت والناسوت. نحن ندافع عن هذا، وقد دافعنا عنه في مجمع أفسس ٤٣١ من أجل فساد التعليم النسطوري. والتمسُّك بالجانب الدفاعي مطلوب. ولكن، ومع الضرورة القصوى للجانب الدفاعي، يجب أن ننتبه إلى أن يسوع ليس فكرةً ندافع عنها، يسوع هو شخص، هو أقنوم، هو رب الحياة، هو إلهٌ متجسد. هو الإله الذي فيه حياتنا ووجودنا الإنساني. جاء إلينا لكي يبقى فينا وبيننا.

لقد تحدثنا كثيراً عن "بيننا"، ولم نتكلم عن "فينا" إلا القليل جداً. حقاً هو سرٌّ عجيب فائق لا ندركه، ولكن تجاهُل هذا الحلول الإلهي لأقنوم الله الكلمة بسبب اتحاده بنا في تجسده، هو أحد أسباب الضَعف الروحي الذي نحياه. مثل إنسان عطشان لا

يعرف أن الماء قريبٌ منه، بل قريبٌ جداً.

سألت: كيف نعود إلى هذا السر؟

قال: أولاً بالإيمان بالخبر السار، وهو إيمان يفتح لنا ثلاث حقائق خاصة بالرب نفسه:

أول هذه الحقائق هي أن الرب جاء إلينا ونحن خطاة، ومات عنا دون أن ندري أو نفهم. هذه حركة محبة لا يمكن أن تتوقف تجاهنا. هو آتٍ إلينا دائماً كراعٍ صالح، مياه الحياة، النور الذي يضيء في الظلمة، خبز الحياة من عند الآب، طبيبٌ جاء من أجل المرضى، كل هذه هي بشارة الحياة.

والحقيقة الثانية هي تقديم الرب لذاته. فقد قدَّم ذاته بالخدمة، ثم قدَّم ذاته ذبيحةً، ثم طعاماً حياً يعطي الحياة، ثم قيامةً وحياةً أبديةً، ثم وعداً بما لا نملك، وهو مجيء المعزِّي الروح القدس، هذه هي محبة خاصة. حاول أن تفكر في الذي جاء لأجلك، وفي الذي لأجلك قدَّم ذاته في العلية، ثم على الصليب. ولاحظ: أخذ الصليبُ قوته من الاتحاد الأقنومي؛ لأن الذي صُلب هو ربُّ المجد. وصار الصُّلبُ والقيامة هو العمل الواحد الذي أباد فيه الرب الموت لكي يهب لنا الحياة الأبدية. فعل يسوع ربنا كل هذه الأمور لأجلنا نحن؛ لكي نحيا. عندما يقول: "من يأكلني يحيا بي"، فهل يمكن لأي لغة أن تقدم لنا شرحاً أعظم مما يعلنه هذا العمل الإلهي الفائق؟ وهو يفعل ذلك معنا نحن. حتى بعد أن نؤمن هو يعمل "معنا"، و"فينا"، وهي الأهم؛ لكي يكون لنا حياةٌ فيه.

هنا يجب أن نمتنع عن الكلام لكي نطلب الحياة.

والحقيقة الثالثة هي أنه هو كوَّن الكنيسة من جسده، من "عظامه ولحمه" كما يقول الرسول. وهو يفعل ذلك لكي يكون لكل الخطاة شركة، ولكي -بالشركة- نتعلم كيف يحب الرب يسوع كل واحد منا، وكيف يحب الرب كل الجماعة. حُبٌّ شخصيٌّ

لكل فرد، وحُبٌّ جماعيٌّ لكل عضوٍ في جسده. لكن لا تنسى الحقيقة الكبرى: إنه يحب جسده، أي أنا وأنت.

ساد صمتٌ، ثم قال: في بداية حياتي كانت "حب قريبك كنفسك" هي بمثابة تحدٍّ كبير. لقد وُلِدنا داخل تقوى شعبية تأثرت كثيراً بالثقافة التي لا تعرف إلا المحبة من أجل العلاقات الجنسية في الأحاديث، وفي الغناء. والقريب هو من ذكره الرب في مثل "السامري الصالح"، الآخر هو يسوع نفسه؛ لأن توبيخ الذين على شمال الرب بأنهم لم يقدموا له الغذاء ولا الكساء ولم يزوروه في السجن أو اثناء المرض، واعتبر الرب أن كل هؤلاء هم شخصه. هكذا وحَّدنا به بسبب تجسده. هكذا صار الآخر هو يسوع. هل رأينا ما هو أعظم من هذا في أي دين آخر: إن الله تجسد، وصار بالتجسدِ الآخر؟

ولاحظ أن المريض والمسجون والجائع والمحروم من الطعام، ليس بالضرورة إنساناً صالحاً قديساً. صحيح أن القديسين تاهوا في مغائر وشقوق الأرض كما تقول رسالة العبرانيين، وحقاً كانوا في سلاسل الأسر مثل صموئيل المعترف، ولكن المسيح الرب، كان يكلم الإنسانية. وهي هنا –على صورة مصغرة خاصة– هي الكنيسة، وصورة كونية، هي الإنسانية كلها.

الحقيقة الخاصة بي وبك، هي أنك أنت هو الآخر بالنسبة ليسوع، ويسوع هو الآخر بالنسبة لك. هو يحبك لأنك أنت الآخر، ولأن المحبة لا تكمل إلا بالآخر، بالمحب والمحبوب، فلا محبة بدون محب ومحبوب؛ لأن الآخر ويسوع هو الآخر عندك. كلاً منكما يحمل ذات الحياة الإنسانية. حياته هي حياة إله متجسد، وحياتك أنت هي حياة إنسان دُعيَ للتألُّه.

الهجوم على شركتنا في حياة الثالوث باسم الخطية، هو هجومٌ على الإنجيل، على التجسد والصلب والقيامة والعنصرة، أي أننا نهاجم ما نحتفل به في هذه الأعياد السيدية الكبرى. نقوم بطقوس وصلوات، ونحاربها في ذات الوقت بالوعظ. هل يوجد عمى روحي أفظع من هذا؟ ساد صمتٌ وقد غلبت الدموع كلانا.

وقال: نكمِّل بعدين.

الآخر هو يسوع؛ لأن العضو في الجسد الواحد هو آخر، وهو عضوٌ في جسد يسوع. المحبة لا تُقسِّم ولكنها تميِّز، والتميز لا يسمح بالانفصال. والكثرة والتعدد هي سمات أساسية للمحبة؛ لأن المحبة تعطي، وهي تعمل بوفرة الصلاح الإلهي. وعبارة الرب نفسه لها دلالة هامة، فهو يقول: "ما فعلتموه بأحد هؤلاء فبي قد فعلتم". نحن نخطئ في تقنين المحبة حسب الشريعة. والوصايا هي الطريق، ولكن الوصية لا تختلف عن يسوع نفسه.

قاطعته، وسألته أن يشرح أكثر.

قال: "أحبوا أعدائكم" هي يسوع نفسه الذي صالحني مع الآب. فنحن "كنا أعداء في الفكر". "باركوا لاعنيكم" هي يسوع نفسه الذي يطلب لنا بركة من الآب، بركة أبدية، وهي عطية الروح القدس، وهو الذي يحسن إلى مَن يبغضه لدرجة أنه غَفَرَ لصالبيه. هو وحده الذي نظر إلى امرأة، ولم يشتهِ؛ لأنه طبيبٌ جاء لكي يعالج الإفراط في محبة الذات، وهو الوحيد الذي عاش حياةً إنسانيةً من أجل الآخرين، ومن أجل أن "يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد".

وهناك وصايا عامة للجماعة، مثل تلك الخاصة بالزواج، ولكن الوصية الخاصة بالآخر هي معاملة يسوع كآخر، هي يسوع نفسه قبل أن تكون معاملتنا نحن كلٌّ للآخر، وإلا لماذا قال: "أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا". وأيضاً: "بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حبٌ لبعضكم البعض"، فقد جسَّد المحبة، وهي محبة لا تعرف التمييز بين الصالح والطالح، الخيِّر والشرير. لا يوجد ازدواجية في المحبة الالهية. وهو يحب الكل معاً محبة واحدة. هذا صعبٌ علينا بسبب تراكمات نفسية واجتماعية، وسلطان العادات والقيم الاجتماعية المضادة للإنجيل. نحن ننتظر أن يأتي الذي أخطأ لكي يعتذر، ولكن الرب ليس مثلنا ينتظر عودتنا. هكذا عبَّر هو عن نفسه في مثل الدرهم المفقود. ولم يتردد الرب يسوع ان يشبِّه نفسه بامرأة، وهو الساعي وراء الخروف الضال، وهو الذي

جرى لكي يتقبل الابن الضال، وهو الذي يسعى وراء كل مجروح.

وعندما قرأت عظات العلامة أوريجينوس على إنجيل لوقا، حيث ذكر أن السامري الصالح هو يسوع نفسه في المثل، وتذكَّرت أن اليهود شتموا يسوع وقالوا له: "إنه سامري وبه شيطان"، تأكدت أن المثَل شاع في أوساط اليهود، وسبَّبَ لهم هذا الحنق.

ساد صمتٌ لبرهةٍ، وهو جالسٌ كَمَن يفكر، أو يرى شيئاً بعيداً، وقطع الصمت وقال: هل تعرف لماذا تركنا طريق محبة الخطاة؟ فقلت له: لا أعرف، ولا أريد أن أُخمِّن. فقال: لأن محبة الخطاة غير مألوفة وغير عادية، بل هي تبدو ضرباً من اللامعقول. فقد حدث أن حضرت امرأة زانية معروفة –حتى في أوساط مسيحية– القداس الأول في إحدى كنائس القاهرة، وشاهدها بعض زبائنها من الرجال، ودخلت مع السيدات لكي تتناول، وتطوع واحدٌ منهم بأن يهمس في أذن الأب الكاهن بأن يمنعها من التناول. ولكن وسط دهشة كثيرين، أعطاها الرب جسده ودمه بواسطة هذا الكاهن العظيم. ولما سُئل من لجنة الكنيسة، قال: إن مَن يريد أن يتقدم لديه نية، والربُّ وحده يعرف النية وغاية القلب. وتمر الأيام، وإذا بها تصبح خادمةً في الكنيسة وتترك الطريق القديم. لو كانت طُرِدَت أو مُنِعَت، ربما يكون اليأس قد حطَّم شجاعتها. نسيت أن أقول إن الأب الكاهن قال في اجتماع اللجنة: وكيف عرفتم أنها امرأة زانية؟ وسكت الكلُّ.

خصوصية محبة يسوع للخطاة، أنها محبة تسعى دائماً ولا تكف في السعي، هي حركة دائمة. وعلينا أن نكون في يقظةٍ تامةٍ لكي يكون لدينا الاستعداد لقبول هذه المحبة الشاذة على كل ما نعرفه، والشذوذ هنا هو أنها فوق كل مقاييس العقل والمنطق.

(٧)

المحبة الواحدة التي لا تنقسم

كانت البداية هي كلمات الرب يسوع في (يوحنا ص ١٧). ختم الربُّ الاستعلانات بقوله: "وعرَّفتهم اسمك وسأعرِّفهم"، فقد عرَّفنا بالآب، الاسم الخاص الذي شرح لنا معنى الاسم القديم: "يهوه": "أنا الكائن"، أو "أنا الذي سأكون"، أنا الكائن الآب؛ لأن الابن معكم وقائم بينكم. وأكمل الربُّ تسليم الحياة الجديدة: "وسأُعرِّفهم (بك أيها الآب)، والسبب: "ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم (بذات المحبة)" (١٧: ٢٦). لكي يكون فينا الربُّ نفسه، فهو كما قال: بالمحبة، أي بذات محبة الآب، لأن المحبة لا تنقسم، وقد سبق وقال الرب: "أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد" (١٧: ٢٣). فمحبة الآب، كما قال الرب نفسه: "أحببتهم كما أحببتني" (١٧: ٢٣) تعني أنه لا توجد سوى محبة واحدة مستعلَنة في الابن وتُوهَب بالروح القدس (رو ٥: ٥).

سألني: ما هو أساس المسيحية، أو أساس الانجيل؟

أجبت دون أن أُدرك غاية السؤال: أساس الإنجيل هو يسوع.

قال: إذن، ليس شريعة موسى؟

أدركت ماذا يقصد. لقد لخَّص الربُّ الشريعة في وصيتين: الأولى أن تحب الرب الهك، والثانية أن تحب قريبك كنفسك. وقال إن هذا هو لُب أو جوهر تعليم الأنبياء. فإذا كانت الوصايا كلها قد انجمعت في هاتين الوصيتين، فإن اختبار الإنسان ليسوع ربَّاً

ومخلصاً هو اختبارٌ لطريق يسوع، وهو الطريق الضيق، أي طريق المحبة.

لقد أفسدت الأغاني الشعبية الذوق والحس الروحي، وصارت الأشواق نابعة من الجسد ومن العواطف. نعم من الجسد؛ لأن الإنسان الذي ينسى الحياة الأبدية، يحاول أن يجدها –أي الحياة الأبدية– في جسده، ويظن أن الجسد هو الوجود الحقيقي. ولابد أن نعلم كيف تم تزيِّيف الجسد نفسه بالخطية، وكيف أن الموت ضرب كيان الإنسان، فأصبح يرى الخلود والبقاء في الجسد، ومن هنا يجيء رعبُ الموت والخوف من المرض؛ لأن الباقي والخالد قد اهتز عرشه.

لماذا لا تدرس الفصول الستة الأولى من الرسالة إلى الوثنيين؟ سوف تجد فيها سر التحول الذي حدث في سقوط الإنسان.

سادت برهةٌ من الصمت، كانت أطول من الدهر. فقد توقف الكلام عند موضوع بالغ الأهمية، وهو نظرة الإنسان إلى جسده، واعتباره بقاء الجسد هو بقاءٌ أبدي خالد، رغم أنه يتقدم ويشيخ، ولكننا نحارب الشيخوخة، ولا ندري سبباً لها سوى المرض وتقدُّم العمر، مع أنها هي نضوج الإنسان لكي يدخل مرحلة أخرى للحياة الباقية الخالدة.

قال: المحبة الواحدة التي لا تنقسم هي محبة –إذا جاز القول– دخلت عرين الموت والفساد، بل ونزلت إلى الجحيم "من قِبَلِ الصليب". هي محبة تقتحم لكي تشفي، وتحول –كما قالت الأناجيل– في كل قرية ومدينة تفتِّش عن المحتاجين للشفاء.

تأمَّل: محبة الآب للابن هي ذات محبة الآب لنا، وهي ذات محبة الابن لنا، وهي ذات المحبة التي يسكبها الروح القدس.

هل تعرف لماذا لا يمكن للمحبة أن تنقسم؟

هذه ليست مسألة فلسفية؛ لأن الإنجيلي يوحنا قال: "الله محبة". وقال أيضاً:

"مَن لا يُحب لا يعرف الله". هذا حكمٌ صارمٌ شديدُ الوقعِ على أي إنسانٍ يدرك أنه بدون المحبة لا يمكن الاقتراب من الله. الله لا يمكن أن ينقسم؛ لأنه ليس مخلوقاً خاضعاً للتغيير. محبةُ الله أبديةٌ غير قابلةٍ للتحول، وهي ليست ردَّ فعلٍ لتوبة الإنسان كما يحلو لبعض الوعاظ عندنا أن يعلِّموا الناس.

تأمَّل معي: محبة لا تنقسم؛ لأنها حياةُ الله، فهي ليست عواطف وإنما الوجود الإلهي –رغم عدم دقة كلمة الوجود؛ لأن "الوجود" خاصٌّ بنا نحن المخلوقات، وربما تعبِّر كلمة "الكائن" عن الله بشكلٍ أفضل– ومع ذلك، فقد دخلت المحبة الإلهية إلى الوجود الإنساني نفسه بالتجسد. دخلت المحبة دنيا الإنسان بما فيها من انقسامات وتحزُّب وحروب وخصام وعداوة تصل إلى حدِّ القتل بسبب انقسام محبة الإنسان وارتباط محبة الإنسان بما يحتاج. ولما كانت الاحتياجات متنوعة، بالتالي تنقسم المحبة حسب تنوع أهداف محبة الإنسان للمال، والعمل، والشهرة، وكل ما يحيط بالإنسان في الحياة الاجتماعية. لكن الثالوث لا احتياجات له، وليس لديه تنوع الطبائع المخلوقة، بل الحياة الواحدة التي نسميها الجوهر الواحد، وجوهر الألوهة هو المحبة؛ لأن "الله محبة".

لقد جرى تقسيم وتبعيض لحقائق هي في الأصل واحدة؛ لأن أصلها واحد، وهو عمل الثالوث. نعمة ربنا يسوع مستعلَنَةٌ في ربنا، ومعطاةٌ بالروح ومصدرها الآب. وهذا لا يقسِّم عمل الثالوث الواحد. لقد كان لديَّ هذا الحس، وصار يقيناً بعد أن درست رسائل القديس أثناسيوس إلى سرابيون عن الروح القدس، وقبل ذلك كتاب ودفاع القديس باسيليوس عن الروح القدس.

إذا استطعنا تجاوز التقسيمات التي زادت في العصر الحديث، استطعنا أن نتكلم عن التدبير بصوابٍ أكبر. أقصد أن موت الرب المحيي على عود الصليب، هو عمل الثالوث، هو استعلان المحبة الواحدة. هكذا تعلَّمنا عندما كنَّا أطفالاً. كان الكِبارُ يسألوننا: مين خلقك؟ وكان الجواب: الله الآب. ومين فداك؟ الله الابن. ومين قدَّسك؟ الله الروح القدس. ومين هو إلهنا؟ هو واحد في ثالوث. وكان رشمُ الصليب هو طقس

الاعتراف بالإيمان بكل ما قِيل عن شـــرحه عن نزول الابن والانتقال من الشـــمال إلى اليمين بالروح القدس. نحن لا نقول باســم الواهب أو باســم القوة أو باســم النعمة، بل باسم الآب والابن والروح القدس لأننا نأخذ. والوعي والإيمان ليس بالنعمة، نحن لا نؤمن بنعمة ولا بعطية ولا بموهبة، ولكن نؤمن أولاً بالروح الواهب النعمة، وهو العطية، وهو موزِّع المواهب. مَن يقبل نعمة، ولا يقبل مانح النعمة، هو أشـــبهُ بلصٍّ أو زانٍ يأخذ ما يريد ويترك الواهب، وينصـــرف بعيداً عن العاطي. التقســـيم الذي يُقال عندنا جاء من عمل الشيطان، ومن أجل خلق فجوات تدخل فيها الفتاوى، ويسود فيها قانون أو قوانين دخلت في عصر غاب فيه الوعي عن أن أساس المسيحية، وأساس الحياة الحقة، هو الرب وليس الناموس أي الشريعة.

أعظم عطايا محبة الرب، هي عطية الجســد والدم في الإفخارســتيا، حيث يعطي لنا ذاته ويقول لنا: "مَن يأكلني يحيا بي" (يوحنا ٦: ٥٧). هو الذي يقدِّس، وهو الذي يوزِّع. لقد نطق القداس الغريغوري بهذه الحقيقة العظمى بكل وضـــوح. ولكن عندما ســادت فكرة ســلطان الكهنوت، بدأت أســئلة العقل الذي تربَّى في مدرســة الســلطة، فأصـــبح الكاهن هو الذي يســـتدعي الروح القدس، والكاهن هو الذي يقدِّس، وغابت نعمة الشركة، فأصبح الكاهن هو الكل في الكل، ولم يعد شريكاً للرب في خدمته، بينما كل ما يعمَلَه الكاهن، إنما يتم بواسطة الصلاة، وبواسطة استدعاء الروح القدس.

وهنا، عطيةُ المحبة تعود إلى المحب، محب البشـر يسـوع المسـيح نفسـه الذي لا سـلطان لأحدٍ عليه. ذبيحةُ المحبة العظمى، سـر الشـكر هي ذبيحة يقدِّم فيها الرب ذاته لنا، ونحن جميعاً غير مستحقين.

لقد تابعت مأسـاة د. مجدي وهبه الذي قدَّم تعليم الآباء القائل بأن يهوذا تناول مع باقي التلاميذ، بل غســل له الرب يســوع قدميه كما فعل مع الباقين. ولكن محاصــرة محبة يسوع المسيح للخطاة هي التي تسـمح "ببهدلة"، نعم "بهدلة" الخطاة، والتشـهير بهم وتعليم قسـاوة القلب على أنه قسـاوة قلب الله الذي لا يمكن تبديل محبته بسـبب سـلوك

البشـــر. أنوح وأبكي كثيراً على ما حدث وما يحدث: ســـرعة الاتهامات وســـرعة اتخاذ القرارات التي لا تعبر عن فهم أو إدراك بل تعبر عن سلطة لا تعرف المحبة.

كانت الشمس توشك على المغيب، وكان سكون المساء يزحف، وصلاة عشية لا يمكن ان تُهمل، ولكن الحديث قادنا إلى الأوجاع الحقيقية للكنيســـة: إهمال المحبة، وإهمال الثالوث إلهنا الحقيقي، وعدم فهم حقيقة موت الرب يسوع على الصليب، وإنكار سُـكنى الروح القدس، وسـطحية الكلام عن السـرائر. هذه كلها تبدو عقائد، وهي فعلاً عقائد، ولكنها استعلانات المحبة الثالوثية.

مضى يومٌ على الحديث السابق، ولا زالت الكلمات حيَّةً في القلب وفي الذاكرة. دُوِّنَت في نفس ســـاعة الحديث. التقســـيم الذي جاء بخراب ودمار الحياة الروحية؛ لأننا نختار ما نريد، ونترك الأصل: نختار المواهب ونترك الأقنوم.

ماذا عن المحبة؟

المحبة هي حياة الثالوث، وهي شركة الثالوث، وحلول كل أقنوم في الآخر.

مِن الأخطاء العامة عندنا هو أن نظن أن أيَّ عملٍ خاصٌّ بأقنوم، قاصـــرٌ عليه وحده. يعني نظن أن تجسـد ابن الله هو خاصٌّ بالابن، ولكن الآب أرسـل الابن لنا قرباناً وذبيحةً، والابنُ أرسل الروح لنا عطيةً. الإرسالية هي شركة الآب في التجسد؛ لأن أعمال الله لا تنفصـل فيها الإرادة والحياة عن العمل ولا عن الشـركة. هذا الانفصـال خاصٌّ بنا؛ لأن لنا طبيعةً مركَّبةً من جسد وروح، وهي دائمة التحول حسب المواقف، وقد نوافق على عملٍ معين دون أن نشـترك فيه، ولكن إرســالية الابن ليســت مجرد قرار إرادي، بل هي مسـرة الآب، ولذلك قال: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سـررت". ومسـرةُ الآب ليست مجرد قبول أو رضـــاء، بل شـــركة في الذي أخلى ذاته لكي يعلن أبوة الآب. عندما قال الرب: "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠: ٣٠)، حقاً هي وحدانية الجوهر، ووحدانية الجوهر تجعل إرادة الابن هي إرادة الآب، إرادة واحدة متحدة متمايزة بســـبب تمايز كل أقنوم،

ولكنها متَّحدة بسبب وحدة الجوهر، وبسبب آخر يعبِّر عنه الجوهر الواحد، وهو المحبة الواحدة.

ماذا يحدث لنا عندما ننال لمسةً واحدةً من المحبة الإلهية؟:

قال: تظهر لنا كل الأمور الزمانية على أنها بلا قيمة. كما قال الرسول بولس: "حسبتها نفاية لكي أربح المسيح وأُوجد فيه". وتعلو محبتنا لدرجة أننا نرى الربَّ أهم من الحياة؛ لأن الرب هو الحياة، وأنه أعظم من الوجود كله؛ لأنه هو الوجود كله. ولا يحلو لنا طعامٌ أو شراب أو الجلوس مع الأصدقاء أو السفر أو القراءة، كل شيء، حتى النوم والراحة الجسدية، تظهر لنا صغيرة غير مهمة، ونستطيع أن نحيا بدونها.

نحتمل الإساءة؛ لأننا أدركنا مقدار كرامتنا عند الله، لا عند البشر. نسمع الشتائم ولا نهتم بها، بل لا نرد؛ لأن ما يقوله البشر ليس من مصدر الحياة، أي ربنا يسوع.

تجسد المحبة الإلهية:

عندما تجسد الابن له المجد، استطاع الهراطقة أن يملئوا عقل الكنيسة بموضوع الطبيعتين. بكل حق، الإيمان بالمسيح الإله والإنسان، ليس موضوعاً نجده في كتاب، أو هو فصلٌ من فصول التاريخ الكنسي. الإيمان بالمتجسد يعني دائماً بالنسبة لي: محبة الله المطلقة التي جعلته "يخلي ذاته ويأخذ صورة العبد" (فيلبي ٢: ٦). هذه الكلمات القليلة كانت موضوع صلاتي في الوحدة لمدة طويلة لا أذكرها، ربما تزيد على سنة. كنت أتوسل إلى الرب نفسه أن يكشف لي عمق محبته، وهذا ليس موضوعاً يُكتَب أو يحاصر بالمشاعر والعواطف، ولا حتى بالتأمل. يوجد بُعدٌ غائبٌ، وهو الاتحاد السري المستيكي، هو وحدتنا مع الرب، وهو اتحادنا به.

انشغلنا عنه، وابتعدنا عنه كثيراً، ولكنه هو كل أشواق الرب يسوع النارية، وهذه

ليست عواطف ولا هي مشاعر، هي أنين قلب المخلص لكي يسكن فينا ويحل بالإيمان في قلوبنا، كما قال الرسول بولس (أفسس ٣: ١٧)، وهو ما طلبه الرسول أن ننال "قوة الروح القدس في الانسان الباطن"، وبقية الكلام ذات دلالة: "وأنتم متأصِّلون ومتأسِّسون في المحبة (ولاحظ) حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين: ما هو العرض (أي الشمول) والطول (أي السمائي) والعمق (أي النزول إلى الجحيم) والعلو (أي الوقوف عن يمين الآب)". كل هذا هو ما يؤكِّده الرسول: "وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله" (أفسس ٣: ١٦-١٩). هكذا عشتُ لا أبحث عن هذه المحبة في الكتب، ولا في أي بحثٍ عقلي نظري، بل في قلبي، وتمرُّ عليَّ أيام طويلة وأنا أردد كلمات الرسول: "لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله"، و"كل"، و"ملء" ليست مجرد كلمات، بل هي إشارات إلى الحقيقة الفائقة التي تعلو على الإدراك؛ لأن الرسول يقول في ختام هذا التعليم: "والقادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التي تعمل فينا" (أفسس ٣: ٢٠)، هذا ما هو فوق الإدراك العقلي والنظري!

سألتُ، وقد ظهرت آفاقٌ جديدة بالنسبة لي: إذن ماذا علينا أن نفعل؟

فقال: لا شيء. في البداية كنت أدرس حياة النُّسَّاك، وقد قُدِّمَت الحياةُ النسكية بشكلٍ مختزل حَذَفَ -عن غير قصد- التسليم الحقيقي للحياة النسكية، أي "الموت عن العالم"، ولكن الموت الحقيقي عن العالم هو "الصلب مع المسيح"، كما قال رسول الأمم بولس: "مع المسيح صُلِبت"، لذا فإن الاعتكافُ هو ابتعادٌ عن كل ما يشوِّشُ الفكر. الصومُ هو طلب القوت السمائي، والغذاء الروحي من الله: "الكلمة التي تخرج من فم الله"، كما قال الرب في ردِّه على الشيطان. عدمُ القنية هو عدم الانشغال بما لدينا؛ لأن هذا، أي عدم القنية، يكشف لنا نوع محبة الذات، الذات التي تريد أن تنمو وتمتد إلى ما تملك. السعيُ إلى الصداقة، بل وطلب هذه الصداقة هو في أغلب الأحوال فراغُ القلب. اصطيادُ أخبار الناس والتسلية بخطايا الآخرين وذكرها لكل مَن نعرف، هو قساوةُ قلبٍ لم يعرف بعد غفرانَ الله. وهكذا، حتى الصمت، لا يُفرَض على الإنسان فرضاً، بل يسعى إليه القلب؛ لأن صلاة يسوع، أو الصلوات الشخصية، أهمُّ من أيِّ حديثٍ.

أذكر أنه كنت من شدة التعب، قد غفوت أثناء القداس، وربما كانت هذه رؤيا، ربما كان أحد الأحلام السماوية؛ لأن الله أحياناً يرسل لنا رسالةً عندما يهدأ العقل ويكُفُّ عن التفكير، أن شخصاً وقف أمامي، وكان يشبه أحد الرهبان الذي عبروا إلى الحياة الباقية، وسألني: ما هو هدف حياتك؟ ولم أجد لديَّ ما أقول سوى: المسيح هو هدف حياتي. فقال لي: الرهبنة وسيلة، الايمان وسيلة، الحياة الجسدانية وسيلة، المعرفة بكل أنواعها وسيلة، الصحة وسيلة. لا تخلط بين الوسيلة والهدف لكي تربح المسيح. خليك زي بولس الذي خسر كل الأشياء وحسبها نفاية لكي يربح المسيح. وأنت تحتاج إلى أتون المحبة الإلهية متى حلَّ روح الله في قلبك؛ لأن الروح القدس هو الذي يسكب محبة الله في القلب. وعدت إلى وعيي، أو انتهى الحلم. ومن ذلك الزمان بدأت أغربل حياتي كلها في غربال مانع؛ لكي لا يبقى لديَّ إلا الهدف، وأنَّ كلَّ شيءٍ هو وسيلة.

لو مرت أيام لا أذوق فيها النوم، لا أشعر بالحسرة، بل بتعب الجسد؛ لأن النوم وسيلة. وما دام الهدف هو يسوع، فاليقظة أهم. وحتى الانقطاع عن الطعام، صار وسيلةً، وتلاوة المزامير لم تعد قانوناً، بل ظلت وسيلة. حضور القداس هو وسيلة للشركة، والهدف هو يسوع، هو التناول، والتناول هو تنازُل عن كل ما هو زائد وغير ضروري.

وهكذا نفلِّح الأرض وننتظر المطر والبذرة السماوية من الثالوث القدوس.

عند هذا الحد أدركت أن حوارنا اليوم قد انتهى.

(٨)

التجرُّد والقِنية

قال: الإنسان دون أن يدري، يبحثُ عن شيءٍ يُضاف إليه لكي يعطي معنى لحياته ووجوده، فيصبح اعتماد الإنسان على عوامل وممتلكات خارجية، بمثابة السلسلة التي تستعبد الإنسان.

وعندما سألت عن أمثلةٍ لِما ذكر، قال: المال – الصيت – المركز الاجتماعي، بل وتراكم المعرفة بأشكالها، هذه كلها تعطي للإنسان الإحساس المطلق بالوجود. هل تذكر الشاب الغني الذي أراد الحياة الأبدية، وسأل الرب ماذا يصنع لكي يرث الحياة الأبدية؟ السؤال نفسه غلط؛ لأن الحياة الأبدية لا يرثها الإنسان بالسعي إليها. هي عطيةٌ من الله بسبب صلاح الله. ولما قال له الرب: احفظ الوصايا، قال: هذه حفظتها منذ حداثتي، ولكن لما سمع: اذهب بع كل مالك وتعال اتبعني، والرب كان يقصد عِش كما أعيش أنا للآب وصلاحه ومحبته؛ حَزِنَ الشابُ الغني؛ لأنه كان "ذو أموال كثيرة". كل من يرى أن لديه شيئاً ما مهما كان قليلاً أو كثيراً، وأن حياته في هذا الشيء، هو غريبٌ عن الله تماماً وعن صلاحه. ولذلك، حَرِصَ الآباءُ على تجرُّد الراهب تماماً من كل شيء بما فيها الاسم نفسه؛ لارتباط الاسم بالحياة الجديدة، ولكن تغيير الاسم لا يفيد إلا عند مَن طلب الحياة من الرب نفسه. قد تقرأ عن هذا الذي كان له ثوبٌ واحد، أو تجرَّد حتى من ملابسه، مثل أبا نفر، وكان لا يأكل إلا القليل جداً. هؤلاء أرادوا مصدر الحياة الحقيقية، وهو الرب يسوع نفسه.

وصَمَتَ، ثم قال: الذين يعملون في المجتمع مثل الأطباء والمهندسين والمدرسين

وغيرهم، هؤلاء لهم صراعٌ أعنف بكثير من صراع الذين في الأديرة. هل تعرف السبب؟

فقلت: له لا.

قال: السبب هو أن الحياة الاجتماعية فيها التزامات وواجبات لا يمكن الهرب منها. ولكن على هؤلاء أن يفهموا ما هو أعمق وأهم، وهو الوعي الحقيقي غير المزيَّف بالحياة الحقيقية. هل تعرف ما هي الحياة الحقيقية؟ قلت له: أريد أن أعرف.

فقال: هي المسيح يسوع كله بما فيه من تعليم، وحياة، ومعجزات، وحَبَل وولادة، ومعمودية، وصراع مع الشيطان، والصلب والدفن والقيامة والصعود، ثم حلول وسُكنى الرب فينا في القلب، وهو جالس على عرش مجده يترك هذا المجد لكي يسكن في كياننا الهزيل الخاطئ الميِّت لكي يعطي له الحياة. ما هي مصادر الحياة عندك؟

فقلت له: يوجد مصدر واحد.

قال: جيد، أرجو أن تكون إجابتك هي كل الحق، وليست إجابة تُرضي بها شخصي. ثم أضاف: مصدر الحياة يصبح هو الحياة. تماماً مثل النعمة، تصبح هي حياتنا نفسها. النعمةُ ليست شيئاً، بل هي ما يُعطى. وما يُعطى من الرب يسوع بالروح القدس، يبقى فينا إلى الأبد. لم نعُد نسمع عن أبدية النعمة. مثل التبني ومثل سكنى الروح القدس. عندما قال رسول الرب إن عطية وهِبة الله "بلا ندامة"، أي بلا تراجع، فقد أكَّد على أنها ثابتة باقية أبدية، رغم ضعف الإنسان.

سألت: إذن، ما هو التعليم الخاص بنا نحن غير الرهبان عن التجرد؟

قال: سهل. أقصد أن الكلام سهلٌ، ولكن التعليم يحتاج إلى إفراز تام:

١– كل شيء ترى أنه أساسي في حياتك غير المسيح، تخلَّى عنه بحرية، أو بتغصبٍ إذا استدعى الأمر، حتى لا يصبح مركز اهتمامك بنفسك.

٢– لا تبحث عن ملابس جديدة إلا إذا كنت تحتاج إليها فعلاً، وسـلِّم النقود لمن هو محتاج.

٣– لا ترد على الشـتائم لأنك إذا شـتمت، فأنت تدافع عن نفسـك، والدفاع عن النفس يجب أن يكون من أجل الرب لا من أجل كرامة أو صيت.

٤– حدِّد لنفسك الدائرة الخاصة بالحياة الاجتماعية الضرورية، وأترك ما هو غير ضروري. افعل هذا بمحبة، وبغير خوف، وبحرية، وليس تحت ضغوط.

كان الحديث كافياً. فقد سمعنا جرس الغروب.

(٩)

الهـدف

كان المبتدئ يطلب "كلمة منفعة"، ولكنها صـــارت بعد ذلك "قانون". ولعل غياب الشيوخ وعدم تسليم الحياة النسكية، هو الذي أدخل فكرة القانون. صار القانون في العصر الوسيط بالذات هو صلوات المزامير – العمل اليدوي – وخدمة الأخوة. والذين عاشوا في المغاير، لم يتركوا لنا مدوَّنات عن تدرج الحياة من المجمع إلى الوحدة.

كان أبي حريصـاً على تمييز أن الحياة المسـيحية الحقيقية لها هدف، وأن الهدف هو التشبُّه بالمسيح، لا بأيٍّ من القديسين. نحن ندرس حياة القديسين وأقوالهم، ونتعلم منهم الحكمة والسلوك، ولكن كل هذا من أجل أن يكون لنا اتحادٌ حقيقي بالرب يسوع. وعندما كنا نرتل المجمع في تسـبحة نصـف الليل، كان يقول بعد المجمع: "يا أنوار الرب يسوع الذين أناروا حياتنا، اطلبوا عنا لكي ننال ذات نور الرب يسوع". وحَرِص على أن أحفظ الإبصاليات وأُرددها في كل يوم، وأن أحفظ صلاة باكر والثالثة والسادسة والتاسعة والغروب والنوم، ليس بتلاوة المزامير، بل بحفظ أوقات الصـلاة. وكان يكرر: لسـنا تحت شريعة موسى، ولا يوجد قانون خاص بالصلاة للعلمانيين.

"هدفك هو قانونك". وهدفك هو الاتحاد بالرب. واجعل من ذلك الهدف قاعدة التمييز بين ما هو نافع ولازم، وما هو ضـار وغير مُجدِ. لا تُحرِّم شـيئاً ما، إلا إذا كانت الوصايا، أي وصايا الرب يسوع، قد حرَّمته. ولذلك كان يشدد على حفظ العظة على الجبل، وقال: إن مكانها الصحيح هو الساعة السادسة، ساعة صلبوت الرب؛ لأن ما جاء في هذه الوصايا هو طريق الصليب، وهو طريقٌ واضحٌ لا غموض فيه. وظلَّ يؤكد

أن العظة على الجبل هي بداية إتقان الإفراز؛ لأن مَن لا إفراز له، هو مثل ورقة جافة في مهب الرياح.

أعود إلى القانون، وكان الجانب الآخر من الهدف، أي الاتحاد، هو محبتي للرب واكتشاف محبة الرب لشخصي الخاطئ.

وسألته: هل للمحبة قانون؟ وأجاب في رفق وحزم: نعم، قانون المحبة هو الصليب، وللصليب جانبان: الموت والقيامة. نحن نموت، لا لكي نموت، بل لكي نقوم.

وجاء قرارٌ آخر، وهو حفظ (رو ٦: ١ – ٨)؛ لأن المعمودية ليست حدثاً عابراً غاب في الماضي. لقد استلمنا من سر المعمودية المقدسة رشم الصليب، وهو عودتنا – برشم الصليب– إلى الالتصاق بالمصلوب والحي من الأموات.

لن تفهم محبة الله لنا إلا إذا فهمت صلب الرب، وتذوقت قوة المصلوب، وصُلبت معه. وصارت صلاة النوم هي صلاة الدفن والموت مع الرب، وهي مناسبة ضرورية لحساب النفس. كان يُشدد: لا تترك الغضب، أو أي فكر يحكم على أي إنسان. "خليِّ قلبك طاهر"، ولا "تحكم على أحد"؛ لكي يكون عندك سلام، يجعلك قادراً أن تميز ما في قلبك من رغبات.

ما يجب أن تحفظه:

اختار أبي مجموعةً من المزامير لكي أحفظها. وشدَّد على مزمور ٢٣ "الرب راعيَّ"، مزمور ٢٧ "الرب نوري وخلاصي"، مزمور ٩١ "الساكن في ستر العلي". وطلب مني أن أحفظ صلوات القِطَع الخاصة بكل ساعة، وبالذات إنجيل السادسة، مع إضافة نص العظة على الجبل كلها وعدم الاكتفاء بالتطويبات.

الحرص والانتباه:

على أيقونة مار مينا تجد عبارة هامة كانت هي التي حدَّدت سلوك أبي: "فوق كل تحفظ، احفظ قلبك لأن منه مخارج الحياة". وقال: إن هذه كانت وصية شيوخ دير البرموس؛ لأن القلب النقي، كما قال الرب، يعاين الله. ولما تأتي عليك أمواج أفكار شريرة، إن كان لها أصلٌ في خبرة قديمة عندك، فأنت تحتاج إلى توبة وتقديس. وإن كانت غريبة عليك، فهي من العدو الشرير. وإن كانت مؤسَّسة على أحداث قديمة، فقد تكون منك، أو من الشيطان، وعليك أن تميِّز. وقال لي إن الإنسان لا يستطيع أن يمنع العصافير من أن تطير فوق رأسه، ولكنه يقدر أن يمنعها من أن تبني عُشاً فوق رأسه. اعرف ما هي رغبة قلبك الحقيقية، وثبِّت قلبك واحفظه دائماً في نقاوة؛ لكي تسمع صوت الروح القدس عندما يناديك أو يطلبك لأمرٍ ما.

لكن في كل مرة تشتاق فيها للرب، اعرف أن هذا هو عمل روح يسوع المسيح ربنا فيك.

الصمت:

"الصمت من أجل الصمت، يجلب على الإنسان أوجاعاً لا داعٍ لها"؛ لأن الذي يصمت لكي يبرز نفسه صامتاً، فينال مديح الناس، أو يصمت، بينما تيارات الفكر تعبر في قلبه مثل طوفان، لكن يجب أن يكون الصمت إرادياً، وهو يبدأ بالابتعاد عن حلقات جمع أخبار الناس، ولا تكرر ما سمعته، لا سيما خطايا الآخرين؛ لأن نشر خطايا الناس لا يساعدهم على التوبة. لا تكرر ما تسمعه، إلا إذا كنت شاهد عيان، وكنت تشهد من أجل المنفعة.

الصمتُ طريقٌ لنقاوة القلب من "السجس"؛ لأن الإنسان الذي وجد حلاوةً في ذكر اسم الرب يسوع، يفقد رغبته في الكلام مع الناس. هذا يُولَد من المحبة لا بتصنُّع

التقوى.

الاستعداد للتناول:

استعداد القلب يجب أن يبدأ بعشية اليوم؛ لأن يوم الرب، كما قال سفر التكوين: "وكان مساء وكان صباح". وكلما ذكرت الأناجيل الأربعة شيئاً عن معجزات الرب بأن الوقت كان مساءً، فهذا دليلٌ على دخول يوم السبت حسب شريعة موسى. أما عندنا، المساء هو بداية القيامة، إشراق الحياة الجديدة. ولذلك علينا أن نودِّع حياتنا القديمة. كان القديس أنطونيوس الكبير يردد عبارة إيليا النبي: "حيٌّ هو الرب الذي أنا واقفٌ أمامه اليوم"، وكان اليوم هو يومٌ جديد، وكل يوم هو يوم جديد.

التناول يُحيي فينا الالتصاق بالرب، ويجدد فينا المعمودية والميرون، ولذلك كان استدعاء الروح القدس في القداس يتم بخشوع ورهبة؛ لأن مَن حلَّ عليه روح الرب، يزهد في كل شيء. "وحيث روح الرب توجد الحرية"، وكل اثقالنا يحملها معنا الراعي الصالح ربنا يسوع، ولذلك لا تتردد من الاعتراف للرب بما يضايقك أو يتعبك أو بالمعاناة التي تمر بها؛ لأن الرب يعرف ما أنت فيه، وينتظر أن يسمع منك طلب المعونة.

حضور عشية وباكر هو ضروري قبل حضور القداس، إلا إذا كانت لديك موانع، عليك أن تحددها أنت حسب محبتك، لا حسب التراخي والكسل الذي يصيب كل مَن لا هدف له، أو ترك الرب كهدفٍ لحياته.

انزع من قلبك كل ما هو زائد، واطلب ما هو باقٍ وأبدي. هذا هو طريق الاتحاد بيسوع، وعندما يصبح جسدك جسده، وحياتك حياته، عليك أن تكون مثله. كلامك نعم يعني نعم، ولا تعني لا، ولا تكن بقلبين. وإذا تراخيت عن هذا، قم واطلب نعمة الرب؛ لأن خطايانا مهما كانت، لا تهدم النعمة. النعمة أقوى من الخطية.

+ + +